PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

الإمام الحسن عليه السلام

الكوثر المهدور

دراسة أدبية تظهيرية

الكتاب الذي احرز الجائزة الأولى في مسابقة
التأليف عن الامام الحسن عليه السلام

تأليف
سليمان كتاني

دار الكتاب الإسلامي
قم - ايران

الإمام الحسن عليه السلام

الكوثر المهدور

Kattani

الإمام الحسن عليه السلام

الكوثر المهدور

دراسة أدبية تظهيرية

الكتاب الذي احرز الجائزة الأولى في مسابقة
التأليف عن الامام الحسن عليه السلام

تأليف
سليمان كتاني

دار الكتاب الإسلامي
قم - ايران

(Annex A)
BP193 (RECAP)
.12
.K37
1989b

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY DUPL>
32101 022169153

إلى اللجنة الكريمة

شكراً للجنة الكريمة ـ لقد أفسحت مجالاً في الاطلاع على سيرة رجل كريم الأرومة ، وزكي النفس ، وعميق الغوص في قضايا مجتمع الانسان .

كم هي الآن ـ مجتمعاتنا العربية ـ بحاجة إلى نهجه في التطبيق ، لكان السلام العاقل هو الذي يجمعها إلى تحقيق مثالي ، نظيف العقل والروح والكف ، ويبنيها بناء التوحيد العظيم الذي حققته أرقى مجتمعات الأرض .

أصبحت أؤمن أننا الآن بحاجة إلى الحسن ـ إلى الامام الحسن ـ إلى الرجل العظيم الزكي الذي هو الحسن .

المؤلف
سليمان كتاني

فاتحة

أيها الامام المجتبى
ضاء إسمك يا الحسن
والاسم لك
جادت به عليك عين المصطفى
وقلب له كريم النفخ والشفة واللسان .

وعقل بعيد الغوص والمدى والمجال
وخيال مدغوم الاسراء بالمعراج
تقودني الآن إلى عتبة لك خطوات تهدج الريح بها ، في حنين ، كأنه شفع من وتر دون أن يتعثر بها نجم خفقت به الليالي الأفكة فقطعت عنه موصول الشعاع

انها خطواتي الصغيرة الصغيرة ،
تنقلت بي إلى العتبات الكبيرة الكبيرة ،

وقفت بها ـ في فترات من قبل ـ على عتبات ثلاث، فإذا خلف كل واحدة منها محراب له عمق ،وله عطر ، وله سقف مدّ فوق السماوات .

لقد كانت العتبة الأولى مؤدّية إلى رحاب أبيك ، وهي ملفوفة بالرضوان .
وكانت الثانية مبلولة بالشذا النهلان بالطهر ، وهي منقوشة لأمك الصدّيقة

تجمعها مريم بنت عمران زنانير مبتولة عن المثيل .

وكانت الثالثة لجدك ابن عبد الله ، ذلك الذي وصل الشطّان بميازيب السحب وأغدق عليها همرات السلام .

هي ذاتها هذه الخطوات ، أتراني أدرك ، وأنا أهمزها الآن إليك ـ كم أنت السيد الكريم ، وكم أنت الوارث العظيم ، وكم هي الأجيال لا تزال حتى الآن بحاجة إليك : ترتق لها المفاصل ، وتفك عن أوراكها عقد المعاضل ، بنهج كأنه ممزوج من بلاغة أبيك في الادراك ، وعجينة أمّك في تحمّل القذى ، ومرامي جدّك إلى عجن الانسان وخلقه من جديد في عمليةِ التسليم والتوحيد .

اتراني أصيب إذ أشبهك بنهر الكوثر ؟ أم أنك لا تزال ترفل في ظلال هي منه أسخى وأوفر ؟

ولكن الذين كانوا مدعوين إلى تناول المنهل ، بدلا من أن يتذوّقوه ، هدروه فيا لظى الحلق إليك ، أيها الكوثر المهدور .

المقدمة

إنني مدعو للدخول اليك أيّها السيد الكريم، وها إني أهفو إلى قلمي حتى يطيب فيقرع الباب عليك . عفو المسافات يا سيدي فإنها لا تزال هي التي تهفو إليك هفو الريح في الفضاء ـ وبابك لم يقفل حتى يقرع ـ فهو هو ذاته في صدارة المحراب ، لأنك أنت المسافة التي ليست لأن يقطع إليها ، بل لأن توصل بها المسافات .

هكذا انوصلت بك المواعيد ، وانفتلت بك عهداً في وصلة الصباح بالصباح ، ودمج الضياء بالضياء ، فبدوت كأنّك الوصال المبني لاستلام الساحات دون أن توهي ـ هي ـ بفك الارتباط .

أتكون أنت منتدباً ؟ أم أنك انبثاق من مهجة الرسالة التي هي زرع الحق في الانسان ، ورفعه إلى مدار الكون ، والسير به إلى سناء يجعله إنساناً سوياً .

ألم تكن هي رسالة جدّك ، لقد أنزلت إليه في غار حراء من خلواته العميقة الموصولة الارجاء ، من استغراقاته المديدة المندمجة الذات التي هي مصدر المصادر في معانقة الحق ، من جهاد العمر كله من أجل التبليغ ، من أجل جعل الاشارة تحيا في المشار إليه ، من أجل جعل الانسان ينمو بالحق المزروع فيه والذي هو ـ وحده ـ نصيبه في الوجود ، من أجل جعل الله مُثُلاً في

النفوس الشريفة المبنية للرحاب ، من أجل ، جعل الانسان محررا من أي اخطبوط يخبيء أصابعه في عثانين الأصنام ، من أجل امتداد العمر بالانسان حتى لا يبقى : ما أن يولد في الليل حتى تتناوله الغفوة قبل تباشير الصباح .

لقد نجح الجد العظيم في بعث الرسالة ، وفي حفرها المتين في قرآن ، وفي نقلها البليغ إلى الانسان ، وفي تسجيلها على لوحة الزمان . وها هي الأجيال لا تزال موصولة به كما لا يزال هو موصولا بالمصدر الذي به تم الاتصال .

ولكن الرسالة التي بلغ بها الجهد إلى حقيقة الزرع ، وحقيقة العلوق ، ومن ثم إلى حقيقة الانطلاق ، إنما هي وصلة في الحياة ، ولا بد لها من تركيز يدفع بها من ثقل إلى ثقل ، كما هي الحياة بالذات ، لاتني تتلقط بكل شوق يتنقل بها من وصال إلى وصال .

وكنت أنت المجتبى ـ قبل أن تبصر النور كنت المصطفى ـ إنه الشوق في جدك تتناوله الغيرة على مجهود يلزمه الدفع الطويل حتى يبقى مستمراً ، يلزمه الدفع الذي لا ينتهي ، فهو ليس حكراً على عمر واحد يأتيه اجل ، إنما من أجل بناء الاجيال التي تأتي دون أن تصرمها الآجال إنما هو في الحقيقة المطلقة مجهود تشبث بحقيقة رزم الانسان حتى ينتصر الانسان . أما القيّم على هذا المجهود فهو الذي لا يعرضه الموت للغياب أكثر مما يبقيه في ساحة الصراع عن طريق توارث الصفات ، من سلف إلى خلف ، وهي هذي الصفات الموفورة تحفظ المجهود في خطّه الممدود .

تلك هي العصمة أيّها الامام ، جمع إليك حدودها جدّك البعيد المدى ، فإذا هي لك في كنىً توافرت فيها الصفات ، كأنها قنوات تستقي منها . فأنت أبو محمد ، وأنت الزكي ، وأنت السبط ، وأنت الريحانة في الجنّة ، وأنت الامام قمت أم قعدت ، وأنت السيّد ، وأنت المجتبى .

إنّها القنوات التي وشمت بها ، لتكون إليها مشدود الالتزام ، كأنّها فعل من أفعال التحضير ، أو عملية من عمليات التخمير ، تلبسها ثوباً يُتَبَاهَى به فلا يُخلع ، وتلتزم بها قميصاً يمتصه عريُك إلى عظمك ، وتمشي بها كأنّك طود له

جذور في الأرض ورياحين مورقة في الفضاء وتترمد بها فتخرج على الوشم الذي يخلد به طير العنقاء .

بالاضافة إلى ذلك ، فأنت المسحوب نقطة من الخط الطويل ، لا لأن يقطع الخط بل لأن يبقى له ـ بك ـ حال الوصل : وصل الأبناء بالآباء ، والآباء بالأجداد ـ إنها كريمة سلالة الأجداد ، ثبت طويلا عليها وجود الإنسان المهيأ للتلقط بكل قبس يشع على ضمير الإنسان . من قصي ـ إلى عمرو العلا ـ إلى عبد المطّلب ـ إلى الذي نمت في حضنه ، ورشفت الشوق من عينه ـ إلى أمّك الصدّيقة التي حضنتك في أحشائها ستة أشهر لا أكثر ، ولم تقبل أن تكون أمّاً لك وحدك ، بل أمّاً أيضاً لأبيها ـ ولا يصل الرزم إلى أبيك حتى نلمح أنه سيد من الأسياد هو قطب من الأقطاب ، ونور للعقل ، وركن من أركان الإسلام .

من مثل ذلك كله كان تحضيرك للسهر على الإرث المجيد ، ولم يكن لغيرك قدم في الساحة العريضة ، والتي هي الآن عريضة تحت عين جدّك المتوسعة المأخوذة بكل هذه الابهاء ، والتي صدق رصيده فيها وصدق حسّه ، وصدقت رغائبه ، وتطلعاته ، وتحسباته ـ فكنت أنت الذي ضاءت به الاشارة .

هذا هو الاطار الذي أعد لأن ينزل فيه الامام الحسن بن علي ، لتكون له منه الحدود ، كل الحدود . فهل صدق الزمان في سيره ، وتمكن هذا الإمام من التلبية ، تنفيذاً لكل ما أوكل إليه ؟ .

إنه ليخطىء الظن في أن مدى الرسالة المطروحة الآن على هذا الإنسان الذي يتدرج تدرجاً بطيئاً إلى مثال هو مقيد بزمان ، بل أنه مدى يتناول بدايته من الحقيقة المستمرة التي تلقطت بها هذه الرسالة إلى الحقيقة المستمرة التي لا ينقطع بها الاستمرار في ثبوت الحق في الحياة ـ إنه المدى الذي يتعدّى الوقت في الزمان إلى المسافات التي يطول بها الزمان ، كما وأنه يتعدّى الفرد في وجود الإنسان إلى القيمة المستمرة والمحققة وجود الإنسان .

إن الطرح الذي ابتدأ بابن عبد الله محمد كان نتيجة تولّد الشوق الكبير من الاحتكاك الملتهب بالجوهر ـ جوهر الحقيقة المكنونة في قلب السرمد ـ فكان

هـذا الطرح بـداية مـوصولـة بالحق الـذي ليس له بـداية والـذي به ومنـه وجود الإنسان ، ثم إن الطرح هذا وإن يكن قد قام به فرد معينّ ، فـإنه يتجـاوزه ـ إذ تخلو منه الساحة ـ إلى سواه ليصبح هذا الـطرح ذاته ملك الإنسـان ، لذلـك هو مخصص له وموجه إليه ، ومنوط به ، ما دامت الحياة مستمرة لا بوجود الفرد بـل بوجود الإنسان ، لذلك فإن رسالة محمد لاتزال هي الفاعلة حتى اليوم .

والإمام الحسن، لقد عين مسبقاً لأن تنتقـل إليه القيمـومة وسيحـاول أن يلتـزم بها مـا دامت له الأنبـاض في الحياة ، وسيتركها إلى الغـير مربـوطـة بنهـج سيكون لها في مجال الديمومة .

ها هو يقف حـائراً عـلى المفارق التي وقف عليهـا جدّه الـلاهث المدّثـر ، وأبوه التعبان من صروف الدهر ، وها هو قد راحت يده تلوح بالاشارات الهادية إلى حقيقـة السير عـلى الـدروب المعـوجـة بـالإنسـان أتـراه قـد نجـح في تقـويم المسالك .

وإن يكن قد عاش في ذلك الحين المغمور بالعي والتنكر لاكتشاف حقيقـة الـذات ، فإنـه أوّل من أشـار إلى حقيقـة السلوك في الدرب الصحيح المؤدّي إلى حقيقـة البناء . لقـد كان بنـاء الإنسان في نهجـه مـوقـوفـاً بتـوسيـع الـدروب لا بتضييقها ، ببناء المجتمع الكبير والقـوي ، لا بتفتيته وتـوزيعه عـلى كل قبيلة من القبـائل فيصبـح عدة مجتمعـات بالضُعف تـوهى ـ بإزالـة أسباب الـداء قبل أن تنقلب هذه الأسباب بدورها إلى مسببات جديدة تتعمق بها أسباب الإنهيار .

لقد ابتدأت الرسالة بهذا الربط المتين ، وكان أساسها هو التوحيد ، ولقـد حققت بـه الإنفتـاح ، والإنضمـام ، والإلتمـام ، والانصهـار ، وتحقيق الجنى والإزدهار ، ولكنها في اللحظة التي وصلت فيه إلى الإمام ـ كانت قـد رجعت بها الأورام إلى الداء القديم الذي يفتك بهذا الإنسان ، ويوزعه إلى ألف وحدة فوق ألف أرض ، أيُّ شيء سـواهـا كـان يفصـل مكـة عن يثـرب ، والكـوفـة عن البصـرة ؟ وأيّ شيء غيرهـا في صفين فصـل الفـرات عن الفـرات ووسّـع هـوة الفراق بين الشام والعراق ؟ .

وجاء الإمام الحسن بنهج كأنّه الابتكار ، يحقن الدم بالصلح الأبيض حتى تـزول الأورام ، فتلتقي قدم بقـدم ، وحسـام بحسـام ، حتى يكـون للمجتمـع العظيم قلب واحد وزند واحد يلعب بالسيف أمام الشمس وتخفق بـه راية الحق براية الإسلام .

لقد غاب الحسن وبقي لـه المنهج حتى تستقيم بـه مناهـج الأمّة في حقيقـة الإسلام ، فما هو هذا المنهج ، منهج الإمام ؟ .

القسم الأول

أطر وملامح

حروف مبعثرة
مع البداية
المهمة
رب المهمة
القيمومة
القصد من القيمومة
أين هي المهمة
الجلوة

حروف مبعثرة

-١-

أيّها الإمام ـ يا أبا محمد ـ أيّها التقي الذي مشى حافياً فوق الرماد ـ أيّها السبط الذي ارتبطت به الأواصر ، وانتهت إليه مفاصل الحقب ، كأنّك همزة الوصل بين ثقل وثقل ، في حوملة تمتزج فيها البدايات بالنهايات .

أيّها الزكي الذي تحمل لعب النار في المصهر ، فطابت به خميرة الطهر ، وصفا رماده .

أيّها اللون الجديد المشرب بلون الورود المتدلية فوق الجدران العالية ، كأنّها امتداد لبحور الجنان ، تشرب الكوثر بدَعَجِ العين ، وتفيض بك الملامح إلى حدود الرسالة التي لا يرتعش بها إلاّ ابن نبيّ .

أيها الأذن التي اصغت إلى الحفيف فغارت بها الأنغام إلى القمر الذي التهب بالصمت والوعد وفيض التمني .

-٢-

وأخيراً ، أيها المجتبى ، أيجوز لي أن أقول ـ إذ اختصرتك بوصف ـ إني وصلت إليك ؟ .

منذ زمن طويل وأنا أسعى إلى المبتغى ـ ولم يكن لي أبداً أن ألمحك إلاّ بعد

أن تطول إغاضة عيني ، كأنك طيف تخف خطواته مع كل دغشة ندية تحلم بها المقاطع المارجة بأفواج الرياحين . ربما يكون لي من هنا أن اكتشفت شوق جدّك العظيم إليك وهو يشمّك ويقول: أنت ريحانتي النديّة ـ كأنك هكذا قد ولدت شعراً في باله .

-٣-

كنتُ مرةً اصلي بين يدي أبيك المنحني أمام عرش الحق ، وكنتُ ـ من فرط التهيّب مغمض العينين . ولكني أبصرته كيف تناولك من حضن أمك البتول ، ليعرضك ـ ملفوفاً بخرقة صفراء ـ على جدّك الرسول ، حتى يعطيك اسماً تمشي به على صفحة الأرض . فأخذك بين يديه ، ورمى عنك الوشاح الأصفر ـ لون الزعفران ، لون الأكباد المشحونة بالبغض والحقد والتشفّي ، لون العروق الشاحب فيها الدم ـ وأزّرك بثوب كان قد نسجه لك في لياليه الراعشة ، المفتشة عن مكوك تعيش عليه حقيقة الغزل ، ثم اصطفى لك الإسم المورق من ضفاف الجنان .

- ٤ -

لقد أسرى بي الخيال في مرة من المرات التي ينبت فيها ريش جديد لطير يشبه العنقاء ـ زرت فيها بيتاً لحارثة بن النعمان ، وهو بيت في المدينة يثرب ، مشترك الحيطان ، حيث كان يقيم ، في جناح منه ، جدّك الرسول ، وفي جناح آخر أبواك الجميلان ، علي وفاطمة ـ وفيما رحت اتيمن بلمس الجدران ، سمعت امرأة ، عرفت اسمها من نبرة الطهر في صوتها ، لقد كانت رَنْمَةُ الصوت لأسماء بنت عميس ، وهي تقول : لهفي على فاطمة ، لم تتمكّنْ خاصرتُهاَ النحيلة من حمل ابنها البكر أكثر من ستة أشهر ـ وكنت أنت بالذات أيها اللطيف ـ وكنت الشبيه الفريد بعيسى بن مريم ، تتركان ـ عن ستة أشهر ، لا عن تسعة ـ مخامل الرحم ، إلى عالم لم تتصلب لكما إليه بعد متانة الجسد . ولكن عيسى لم يترك حنوة من حنوات الأرض الطاهرة ، لا في صيدا وصور ، ولا في الناصرة ولا في أورشليم أو بيسان أو جرزّيم ، إلاّ ووزع عليها قدميه

السابحتين ، وزرع فيها مواسم النارين ، كما فعلت أنت بالذات ، عندما تمكنت منك الأشواط ، فلم تترك ساحة محرورة إلا حاولت ربطها بأخواتها من الساحات في عمليات كنت تستنبتها وتنقلها من حقيقة الرؤيا إلى حقيقة الاحتراز ، عن طريق التروّي والابتكار .

- ٥ -

كنت في ذات أمسية أستريح من عناء ، وكان رفيقي ، وأنا ملقٍ رأسي إلى وسادة، كتاب يحدث عنك، لم تأخذني حروفه، لأنها كانت يابسة بحبرها الضئيل ـ كانت يابسة البيان ، لأنها كانت يابسة الحس ، وإن نطقت حتى بالحقيقة ـ من هنا ينقلب لحاء الشجرة إلى قشرة يباس ، إذ تنقطع عنها العصارة الصاعدة والنازلة في آن ، ومن هنا كان الطهر في أمّك البتول مخزوناً في روحها لا في مجرى الدم في عروقها ليكون الحب في القلب المروي بالحس والنبل وبراءة الفهم ، قبل أن يكون دسماً في غدّةٍ يترابط بها قفص الصدر .

رغم ذلك فإني لم ألق الكتاب من يدي ، بل رماني هو في غفوة أغرقتني في حلم . ها إني ، وأنا مغفٍ أتذكر القول : « فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها» . وها هي الآية ، كأنها تنزل إلى أذني من أعلى مئذنة ، إنها مسحوبة من سورة الأحزاب : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . » .

واختلطت أمامي المشاهد ها إني أسمع النبي الكريم يباهل أسقف نجران على أهل بيته ، وهم علي وفاطمة والحسنان .

ثم رأيتني أطوف الأزقّة في يثرب ، وسريعاً ما وجدتني على الزاوية الشرقية من المسجد أصغي إلى حديث يتفوّه به البرّاء بن عازب ، كأنه يتباهى بشهادة تبرع بها ألف مرة : رأيت النبي ، والحسن على عاتقه يقول : «اللهم إني أحبّه فأحبّه» . وما كدت أدير رأسي إلى الزاوية الثانية حتى سمعت محدّثاً آخر يدعى أبا بكرة ، كأنه يشهد أيضاً للمرة الألف : « رأيت رسول الله على المنبر ، والحسن

ابن علي إلى جنبه ، وهو يقبل على الناس مرّة وعليه أخرى ويقول : إن إبني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين . » .

ومن طرف الساحة ، إلى هناك ، قيل لي أنه حبر الأمة عبد الله بن عباس : كان أيضاً في معرض الرواية عما سمعه من فم الرسول : « النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق ، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف ، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس . » ومن الطرف المقابل سمعت من قيل عنه أنه زيد بن أرقم ، يروي عن النبي : « إني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي : أحدهما أعظم من الآخر ، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما » .

أما الصوت الذي سمعته فقطع عني حومة الحلم ، فإنه كان لأبي هريرة شيخ المضيرة . . . لقد كان الإسناد عنه أنه كان اذا رأى الإمام الحسن مقبلاً يتسارع إليه ويقبّله في سرّته لأنه رأى الرسول هكذا يفعل . لو أن التقبيل صدق ومحبة ، لطابت شفة الذئب ولدغة الثعبان .

-٦-

ذكرتني قصة ابي هريرة بقصة سوادة بن قيس - إنها قصة تقبيل السرّة ، قيل : عندما اشتد المرض على النبي ، بعد أن رجع من حجّة الوداع ، اراد أن يجمع الجزيرة بمثال حي عن المحبّة والتسامح والغفران ، فعرض ذلك على كل من بعودونه معلناً أنه يتمنى أن يقتص منه كل من اساء هو إليه ولتكن واحدة بواحدة عملية الاقتصاص - فانبرى إليه سوادة بن قيس مدّعياً أنه لقي منه مرة ضربة سوط على بطنه ، فلنسمع إلى ما دار من حوار :

- النبي الكريم - اين انت يا بلّال ؟ ناول سوادة السوط المعلّق في الجدار .

- بلّال - هاك السوط يا سوادة .

- سوادة - اكشف عن بطنك يا رسول الله .

ـ النبي الكريم ـ هاك بطني يا سوادة .

ورمى سوادة السوط من يمينه وانحنى ساجداً يقبل سرّة النبي بشفتين ملتهبتين بالجمال والنّبي العظيم ليقول :

ـ اللّهمّ اعف عن سوادة كما عفا عن نبيّك محمّد ـ .

-٧-

في الحيز المكنون في وجداني ظن لم يكذّبه حتى اللحظة شعوري : لم يكن لجدّك الرسول أيّها الإمام أن يفرق بين ابيك البليغ في نهجه ، وابي بكر في طويته ، ولكنه كان الغارق في الشوق العظيم إلى تحضير القيمة في الانسان . لقد كانت وعرة كل المسالك ، ولقد كان لها البذل السخي من الدموع والاعراق والدماء النازفة من الاوصال ، ولقد كان التوحيد السبيل الأمثل في لملمة المجتمع وربطه بالانسان المدرك ، ولن يكون الادراك بغير التمرّس بالحق والمعرفة ، في تغطية بليغة المدد ، يترادف فيها الصدق والبراءة والعدالة والمساواة ، تحت ظل من جناح يخفق بالحب والتقوى ونبل الحس والشعور ، هيهات لهذا البساط من الروعة والجمال ، من اين له ان يبقى متين النسج من دون خيط حبيك الفتل وصامد المكوك ! من هنا كان للنبي المشرف على الساحة الكبيرة ، والتي هي الآن ممدودة من لملمة جهوده ، إن يضمن التركيز في قاعدة تتصارع عليها الاجيال دون أن تفرطها . اعتقد بأن اناطة القضية الكبيرة برجل يكون المسؤول الأوّل عن مجهود عريق التحقيق وبعيد المرمى في بناء المجتمع ، وبناء الطاقة التي هي وحدها الإنسان ، لامر جليل الأهمية في جمع الصفات وجعلها تتضافر في حبكها لتحمل المسؤولية الكبيرة والعظيمة والجليلة . من هنا يكون لهذا المسؤول المتين المنكبين بناء خاص كما هو بناء الرياضيين المتمكنين ، يبدأ باكراً في التحضير النفسي ـ العقلي ـ الروحي ، دون أن ينتهي التحضير ، في ممارسة اصيلة الحس والفهم والمؤدّى ، هادفة المران ـ انها الامامة كما يشير إليها القصد ـ إنها تمالك الصفات المتنامية في المسؤول المحضر لاستقبال العصمة المتمكنة من حفظ الرسالة المبنية لصيانة الانسان الذي هو عماد المجتمع العظيم الذي يكون

هو بدوره سياج هذا الانسان ، ومصدر المدد له في البقاء والاستمرار فلتشهد هذه الآية من سورة المائدة : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم، واتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾ . إنها الآية التي نزلت في غدير خم ، حيث تمت المبايعة للإمام علي ذلك الذي تفتحت عينه على ولادة الرسالة ، ومن حيث كانت له الرفقة المرموقة ، ومن حيث كانت له المساهمة في الاعداد والتمكّن .

- ٨ -

لا اريد أن تشط بي الاهواء إلى غير الاستقراء في متابعة درس الاحداث في مسيرتها من غير ردّها إلى اسباب ومسببات ، وعرضها على محك التعليل وترك الحكم فيها إلى المنطق .

اليس حدثاً عبور الخلافة عن الإمام علي ثلاث مرات متتالية وهو المُوحى له بها ، كما يؤكدون ، وهو الموجّه والمعد لها ، كما يشهد له الاستحقاق ، وهو المشارك البطل في تدعيم ركائزها ، كما يدل إليه السيف والبطولة في الساحات .

ولكن . . . اتكون الرسالة ملك الموصي حتى يعين من يريد قيّما عليها ؟ أية رسالة على صفحة الارض كانت ملكاً للذي طرحها ، وقدّمها ، وربطها بعقله وروحه واعصابه ، وبرى بنودها ، وصان نحوتها ، وبنى جدرانها وسقوفها ؟ .

إنما هي ملك المجتمع الذي يقبلها فتثبت ، او يرفضها فتنكفىء إلى سكون ، وإنما هو المجتمع هو الارض الخصبة التي تقدم الذخر حتى يتم العلوق ، والنمو ، والزخم ، والانطلاق .

لم يقبل المجتمع بتنفيذ الوصية ، فمن حقه أن يقبل ، مثلما هو من حقه أن يرفض .

يا ليته كان يدرك القصد والمرمى من طرح الوصية ، لكان له أن يحترم

الموصي والموصى له في آن واحد ، بدلاً من أن يعود إلى القبلية فيسحبها هكذا من وأدها .

اليست الردات مرضاً من الوهم المزمن ، يصيب مجتمعات الانسان ويرميها في المعاناة المؤلمة ، إلى أن يعود العقل إلى ردّة معكوسة سليمة يمليها وعي جديد ، وادراك مشع ، هما من الحياة مدد في الزخم ونعمة من كرم الله وجوده ؟ .

-٩-

والقبائل في الجزيرة إنهم مادة العرب ـ جمعتهم الارض ، وشتتهم الارض ـ لقد كان لهم أن يفعلوا حيث تنكروا للقبلية التي كانت ترميهم في حقول مصفرة يقتاتون منها بالطفيليات .

عندما تصبح القبائل جمهوراً واحداً في الوعي ، يكون قد ولد فيهم الانسان في قيمومة الفهم والادراك ، وصولاً إلى تحقيق المجتمع المنيع الباحث في جوهر الحق .

اتكون رسالة الاسلام تلبية للاعجة شوق هاجعة في الطوايا ؟ نادتهم فانسحبوا إليها ، كما ينسحب العطش بالغزلان خلف كل سلك تلمع فيه لهثة ماء ؟ .

وكان التوحيد باسم الله الذي « لا تراه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان » وكان السؤال من ذعلب اليماني موجهاً إلى الإمام علي عن ربّ علي ، وكان الجواب ، وكان التوحيد مربوط الإيمان بالذي يرى ، وبالذي بسط الحياة على كفّ الازل ، من لا بداية تلحظ ، إلى لا نهاية تدرك ، من حيث يكون الإنسان في ولادة دائمة ، يكتشف ذاته مزروعاً في صدر الحياة ـ بلا شأن ـ إلى أن يجد شأنه في المجتمع الذي يبنيه صاعداً لائقاً بعزّته وكرامته كأنسان .

-١٠-

كان قميص عثمان منسوجاً قبل أن يولد ـ يا لـه من قميص ، بدلاً من أن يستر عرياً ، كشفه ـ ولكنه كان مشغـولاً على نـول تلعب فيه ريح سموم ، وأن تكن قد هبّت عبر الفدافد المحروقة باللفح ـ فليس هذا الوهـج هو الـذي اندفق على هذا النول بوطأة النار ، بل أن البلية المسعورة برجم الحمم ، هي في القبلية التي لا تنام إلاّ على القلى المحروق بنبات الحمض ! يا لـه من نول فصّلت عليـه الجزيرة كل قمصانها القديمة ، فهلهلتها الريح إلى ألف سهم .

ايها الامام المجتبى ـ كانت لك المحاولة البارعة وانت تتسلم المركز المسنود بمثل هذا العود ـ ولكن الولاء هو الذي كان معوراً ـ وبدلاً من أن تنجح بعملية حقن الـدماء ، وجعلهـا في اللحمة الممـدودة والمشدودة ، هـوت بـك مفـاصـل الارض ، لتبقى لك فيها ريح لطيفة تذكـرها ـ إذ تعـود بها دورة إلى الحق ـ بـأن السبيل الأمثل إلى العزة في الإنسان ، هو ربط المجتمع بوحدة انسـانه بـوعي هولـه في تحقيق المجال .

مع البداية

بهـذه الصفحات المعـدودة وعنوانها « حـروف مبعثرة » أحببت أن أستهـل هـذا الكتاب عن الإمـام الحسن . تشكل هـذه الحـروف المبعثـرة رؤوس أقـلام لمواضيع تظهر فيها بعض الملامح الملفوفـة بأوشحـة من رموز ، مشيـرة إلى الأطر التي أحاطت بسيرة الإمـام ، ولقد عنـونتها بحـروف مبعثرة ، لأن مهمـة الإمام بالذات لم تتحقق لها جوانب الجمع والارتباط على سياق رتيب ، بـل تشعثت بها المفـارق في لوالب من الأحـداث قطعتهـا عن خطّهـا وبترت خـطواتها فجعلتهـا تتوقف عن السير في طـريق قد اعـوج ، لتعود فتقحمهـا ـ من جديـد ـ في طريق آخـر ، رسمت خطوطـه بقدمـين مسحوبتـين من حقيقة السـاحة ، ومن حقيقـة رمالها وغبارها ، وأورام مفـارقها ، ومن مسـاحاتهـا بالـذات التي كان قـد جمعها الجهـد والجهـاد : من أطـراف اليمن ، إلى كـل المـطارح المنهـوكـة من أرض

الحجاز ، إلى الكوفة والبصرة والسهول المطروحة في أحضان دجلة والفرات ، إلى الغوطة التي ينز عليها بردى ، إلى الشاطىء المكشوف والملفوف بالارض التي ولد فيها عيسى المغتسل العماد بنهر الأردن . . . كل هذه المساحات أصبح الآن يهددها التقاطع ، وراح يتلازج بها عكر ممزوج الوحل بالكبريت ـ فما هو هذا الوحل الذي راحت تتلازج به ساحة الإسلام ، وما هو هذا الكبريت الذي راحت تصفر به أوصال الجهد ؟! .

من المعلوم أن رسالة الإسلام هي أطروحة بكر ، نقلها النبي محمد من جهده العزيز الامتثال لانتشال الجزيرة من عتمات ليس فيها أكثر من سرج شحيحة لا تكفي شيئاً في إظهار معالم الطريق ـ هنالك إنسان يقفز قفزاً في الليالي ، يفتش عن واحة ، وما أن يطلع عليه النهار حتى يفتش عن ظل ـ وذلك هو التفتيش المضني ، والذي هو أقل من حرمان . إلا أن هنالك إنساناً ـ أيضاً ـ يتحلّى بالذكاء ، هو وديعة ربّه في الحياة ، وإن أي جهد يبذل في سبيله ، يخلصه رويداً رويداً من متاهات تضنيه وتقصيه عن حقيقة البحث في الشؤون الكبيرة التي تجعله ـ عن حق ـ إنساناً راشداً .

فلنختصر ـ لقد أثمر الإهتمام العظيم ـ لو أنه لم يكن مغروفاً من حقيقة الفهم ، وصدق العزم ، وعمق الرؤيا ، لما كان ليثمر . وها هي الأطروحة ، إنها في الرسالة ، إنها في الكتاب الجديد الذي لم يكن إلا ليحلم به هذا الإنسان حتى يجمع به موارد فكره ، وموارد عيشه ، ومواد دفاعه عن نفسه ، وعن حقّه في الوجود . إنه نظام حياتي ـ فكري روحي ـ مالي ، وهو ثوريٌّ في حقيقة التنوير ، والتطوير ، والتحقيق . ولقد قبله هذا الإنسان المشتاق ـ بعد لأيٍ ، بعد ترددٍ ، بعد رفض . . . . ولكنه أخيراً قبله وراح يتذوقه كأنه طعم جديد لجنة كان يحلم بها حتى اكتشفها مزروعة في روحه ، وفي خياله ، وفي وجدانه . قلت ـ قبله كتاباً ، ولكنه راح يسمع منه ، أكثر مما يقرأ ، فهو لم يتعلم القراءة بعد إلاّ قليلاً ـ هنالك أعداد وفيرة من أمثال هذا الإنسان ، لا تزال تشردها الجهالات في عمهٍ طويل . عندما ينقلب هذا العمه إلى ثقافات ، تكون قد فعلت الرسالة الجديدة ، وطابت بإنسانها الجديد .

ولكنها فعلت ـ لقد بدأت تفعل ـ ستستمر تفعل ـ ولن تنتهي تفعل ، لأنها بنيت هكذا لأن تفعل ، لأنها من الحياة : جهد ، وبذل ، وعقل ، وتصميم . أليست من هنا فاعليتها ؟ وهي كذلك ، فهل يمكن أن يكون الاهتمام بها أقل شأناً منها حتى تبقى متمادية في الفعل المتطور فتتأصل وتنقش في النفوس وفي العقول ثقافة كأنها الحفر المعبّر عن حق الإنسان في سوية ممتازة ، هي حقيقته في الوجود ؟ .

سيكون الإهتمام بها من أجل استمرارها في حقيقة الفعل، ضلعاً جديداً من ضلوع الأطروحة التي انشغلت بها الرسالة؛ فكيف رسمت حدود هذا الإهتمام والتنامي ؟ وتلك مهمة جديدة نبتت من صلب الرسالة ذاتها ، لأنها منها في مادة الوصل والارتباط ـ فكما أن الرسالة جليلة بهذا المقدار ، فمن المحتّم أن تكون مهمة الصيانة جليلة بالمقدار ذاته ، واستطراداً أقول : كيف رسمت حدود هذا الإهتمام ، وهل رسمت فعلاً حدود المهمة ؟ .

إن الذي يصون الرسالة اليوم هو صاحب الأطروحة الحاضر ـ فهو الذي قدم الرسالة ، وهو الذي تعهدها ، وهو الذي دفعها إلى الساحة ، وهو الذي لا يزال يدفعها ، وهو الذي ـ أيضاً ـ ينتظر خلو الساحة منه ؛ فمن تراه يعين خلفاً له يتناول مهمة السهر عليها ؟ إنه من الجحود أن يهمل المجتمع العظيم الذي رفعت من شأنه هذه الرسالة . لست أنتظر أن أجد حريصاً على الرسالة أبلغ من باريها ـ أتراه أعد الاعداد الكافي ذلك الذي سيتناول منه وعنه عملية الدفع والتكميل والتصعيد ؟ .

حري به أن يفعل ـ كثرهم الذين حوله ـ أكانوا مهاجرين ، أم صحابيين أم من الأنصار الفاعلين ـ لقد أعدّتهم الرسالة إعداداً مجيداً ، وإن متفاوتاً في الفهم والصلابة والإدراك ، أما تعيين القيّم المتفرد، وإن يكن ـ في الدلالة إليه ـ تعرض لإحراج ، فلا مندوحة عنه ، ولن يكون عن طريق القرعة ، بل بتخصيصه باعداد نفسي ـ عقلي ـ روحي طويل الأمد ، يجلوه الاحتكاك ،

والإختبار ، وبعد في النظر ، وتحضير مشتق من الرسالة ، ومن الغيرة عليها ، ومن تفهم مراميها ومرآئيها في الحياة ، فهل حصل هذا الإعداد من قبل الرسول ؟

أول ما تمتد الإشارة إلى رجل فذ ، كان ربيب الرسول ـ لمع إسمه في الجزيرة ، وفي جميع أنحاء العالم الإسلامي ـ منذ ذلك الوقت إلى اليوم ـ إنه عليّ ، فهل سيمثل أصبع الرسول إليه ؟ إنه ابن عمه ، ولقد حضنه في بيته ، وكان ثاني فرد في الجزيرة يعتنق الإسلام ، وزوّجه من ابنته فاطمة التي كانت متفردة بحبّه ، والتي حصر ذريته بابنيها الحسن والحسين ، وأفرد لهما حبّاً خاصاً دغمهما بالجنة . . . أيكون كل ذلك حاضراً ومحسوباً في الاعداد المنتظر التنفيذ ؟ وهل هو ـ بحد ذاته ـ إشارة إلى التخصيص والتعيين ، تعيين علي ، ومن بعده يناط الأمر على التوالي ، بالذرية التي تبقى وحدها في المجال ؟ .

كثر هم الذين لمحوا الإشارة ، ولقد كانت ، عريضة وعريضة ، إلى درجة لا يحتاج معها الى نص يزيد وضوحها ، ويثبت حدودها ، وينقلها من حالة العرض إلى معنى الفرض ، ولكنهم كانوا كثراً ـ بالوقت ذاته ـ اولئك الذين لمحوها وحجبوا العين عنها ، ولم يريدوا أن يفتشوا لها عن نص يثبتها ، فهي ـ بالنسبة إليهم ـ تخصيص يحرمهم من حق المشاركة في تحمل المسؤوليات الجسام ، فالانتخاب ، من هذا القبيل هو المفسح في المجال لتقديم البارزين في طاقاتهم المهيأة ، والأنسب منهم هو الذي يكون له التعيين .

وغاب الرسول عن الساحة ، ومع اللحظة الأولى من غيابه ـ وهو مسجى تتم على جسده الطاهر عملية الغسل ـ وقبل أن تحصل عملية الدفن ، وقبل أن تنشف العين من دموعها حتى ترى أين هي الطريق ، وقبل أن يمهد التمهل درباً للتبصر . . . قبل كل شيء من هذا ، تم السباق إلى دار السقيفة ، وتم الحجز على كل نظرية في التعيين المسبق ، وفي التخصيص المقفل ، وحسماً لكل اعتراض يحصل ، تم تعيين أبي بكر الصديق أول خليفة للإسلام .

من البديهي أن نحكم أن عملية كهذه هي عملية تعيين لا عملية

إنتخاب ، فالانتخاب هو استشارة الجماهير ، والاستشارة هي وعي معزز بثقافة . لست أظن أن انتخاباً واحداً من هذا النوع قد حصل في تعيين أي خليفة من خلفاء الإسلام ، لا بد أنه كان يصل بمبايعات مقهورة ومهدور فيها الدم ! لم ينتخب ـ إذاً ـ أبو بكر ، بل جاء نتيجة تمثيل خفيف جداً ، قام على صراع بين بعض الصحابة وبعض الأنصار ، ولم يحصل أبداً على إجماع ، وبهذا يكون رفض التعيين وقوعاً في تعيين ممهد لخلاف .

إن الفئة الثانية الممثلة بعليّ ، والتي لم تستشر ـ كانت مقتنعة بالتعيين الذي أشارت إليه إرادة النبيّ ـ فهو تعيين مربوط بجوهر الرسالة ، وهو تعبير عن مركز ديني ، قبل أن يكون تعبيراً عن مركز دنيوي ، بمعنى أنه دين قبل أن يكون دولة ، وهو دولة بعد أن تصلح بالمثل التي تقدمها الرسالة أساساً في كل شرع . إنه دين قبل أن يكون سياسة ـ وهو سياسة عندما تعززها الرسالة بالهدى والرشد ، وهي تعيين منبثق من جوهر الرسالة ، أكان مثبتاً بنص ، أم مشاراً إليه بتلميح ، إنه جوهر الرسالة . أما الانتخاب ، فلتبن الرسالة ـ أولاً إنساناً يتوصل إلى حقيقة الإنتخاب . لا تزال الرسالة في أول الطريق ـ وهي التي توفقت وخلقت إنساناً ـ ولكنه لم يصل بعد إلى السوية المؤهلة ، فلتبق هي الآن في المرحلة التي تؤهل الإنسان وتحضره للوصول إلى حقيقة الإنتخاب .

تلك هي النظرية التي قسمت إلى خطين : واحد يريد الشورى ، أو الإنتخاب المفروض ـ وثان يتعلق بالتعيين الذي تحضره التقوى ، وتؤهله للقيادة وتبتعد به الجماهير عن انقسامات قبلية ، لم تكن يوماً واحداً في مصلحة الأمّة المشرّدة ـ هنا وهناك ـ قبائل على صفحة الأرض ! .

ذلك هو نصيبك من الساحة التي راحت تغرق من جديد بوحل قديم لا يخصب ، وبكبريت ليس فيه نسمة أو بلّة ـ أيها الفتى الصغير . لقد مات جدك وهو ينظر إليك وهو مستعجل لأن يسلمك المهمّة ـ أتراك تستعد منذ الآن لاستلام المهمّة ، فتحيا أنت في عين جدّك التي لا تزال هي تحيا في الرسالة ؟! .

المهمة

والمهمّة ـ أنها رسالة الإسلام ـ ليس في قصدي أن أحدّدها ، بل أن أتناول منها ما يشدد ضلوع البحث الذي هو الآن في متناول الإشارة . من هنا إن المهمّة الجليلة هذه ، والتي هي قضية الوجود ، أو بالأحرى قضية الإنسان ، ليس يطالها التحديد بأوسع مما يحصرها الإسناد بأنها مصدر من مصادر الشمول ، وضلع من ضلوع الكون ، محضرة لأن تبتدىء بالأنسان ، ومهددة بالخبو إذ تخمد جذوة العقل في الإنسان . إنّها ـ بالفعل ـ قضية الإنسان ، فهي رسالة منزلة الحروف لهدي الإنسان ، والسير به قدماً في الدوائر المدركة حقيقة الكون ، والمتلقطة بكل سبب من الأسباب التي تنتقل بالإنسان من الجهل إلى الوعي والإدراك والتحقيق الإنساني ، في قبس من نور يشع بالحق ، وينعكس بالجمال ، ويتحلّى بالمثل التي تبني المجتمع العظيم بناء صادق المفعول ، وصامد التركيز .

إن التحديد فيها ، كمهمة ، يقوم ـ إذاً ـ في التدليل إلى مؤدياتها . يكفيها التلميح إنها جمعت في غار فتحت فيه كوىً تدلت منها حبال من الشوق الذي يولد فيه ولادة دائمة : الإنسان ، وفكر الإنسان ، وعقل الإنسان ، وخيال الإنسان ، وكل الأماني الكبيرة في ضمائر الإنسان ؛ ويكفيها التبصر إنها نزلت في قرآن ، لم يقرأه الإنسان الأمي في المحيط الذي نزل فيه ، بل أخذه إلى وعيه وجنانه حفظاً كأنه التسجيل ـ بل وأخذته الأجيال في امتدادها الإنساني المجتمعي ، وطوّقت به وجودها الحياتي ، وبنت عليه كيانها الحضاري ، وراحت به إلى ديمومة فاعلة واعية بالحق ، وراشدة بالمثل ، داعية إلى المعروف ، وناهية عن المنكر .

أتكون زهيدة هذه القضية في كل مجالاتها في التحقيق ؟ وأي شيء هو الزهيد فيها : ولادتها في غار ؟ ولكنها فتحت الغار على الأغوار ـ كذلك بالتمام كانت ولادة عيسى في مزود ـ ولكن الطفل الذي تدفأ بأنفاس الحملان ، هو الذي حملته البراءة إلى اكتشاف الحق المزروع في روع الإنسان . . . وكما في

مزود ، كذلك في غار ، كانت ولادة جديدة ، كانت ولادة الإسلام ، وفي المزود كما في الغار ، كان حبك الزنار الذي لا يزال أطول زنار تزنرت به كرة الأرض ، وجمعها كلها في وحدة الإسلام .

ليست زهيدة ـ إذاً ـ هي القضية التي تلقّى حروفها ابن الغار . لقد انتشل بها إنسان الجزيرة من غيبوبة طويلة إلى ديمومة في الحق ، وبدلاً من أن يكون لهذا الإنسان تعلّق بألف عثنون لألف صنم ، داس عنه ابنُ الغار كل الثعانين ، وقدّمه واحداً ، حراً ، كريماً ، إلى الحضن الواحد الذي هو ربّ العالمين ، ليلتقي به الجمع والتوحيد ، وتتنزه به الصفات الكريمة التي بها تبنى المجتمعات ـ وهل بغير التوحيد يثبت الإنسان ويزدهر مجتمع الإنسان ؟ .

رب المهمة

عفوك اللهم ، يا أيها الخالق الذي ناجاك الإمام علي «بان العيون لا تراك بمشاهدة ، وتدركك القلوب بحقائق الايمان » أنت الرّب ، والإسم لك في الربوبية ـ فأنت الباسط الكون : لففته بالمجرّات ، وأنرته بالشموس ، لتكون أنت المجرات ، وأنت الشموس ، في الدائرة التي تبتدىء باللابداية ، وتنتهي باللانهاية ـ أنت الغار الذي حفرته في حنوة من حنوات مكة ، وأنت الذي رفعته إلى حيث لا ينتهي غور ـ وأنت الذي نزّلت على عبدك ورسولك محمد حرفاً ، ناطقاً ، محرور الشوق والعين والخيال ؛ فأنت الرب ، وأنت الاله ، وأنت الكل في الإتصال ، وأنت الإنسان في الإنسان الذي يحمله الوجد إليك .

بهذه اللمحة من وجدان رغبت أن أفتتح حصّتي في البحث عن المهمة الجليلة التي تتوسع برسالة الإسلام ، والتي يكون النبي الكريم محمد ركيزة من ركائز الأداء فيها لتصبح منسوبة إليه ، وليكون ـ بالتالي ـ أول من امتثل بها امتثالاً واعياً ، وفاهماً ، ومدركاً ، وملبّياً ، وليصبح ـ بالنتيجة ـ أحق من يملكها ويملك حدودها ، ويملك سنتها ، وحق الدفاع عنها . هو الذي دخل الغار فهو المغوّر ـ وهو الذي نزل عليه الوحي ، فهو المتقبّل ـ وهو الذي ناء بالحمل ، فهو

المتحمّل ـ وهو الذي حمل التبليغ، هو المبلّغ ـ وهو الذي التهبت أوصاله، فهو المدّثّر ـ وهو الذي تقدّم إلى ساحات الصراع ، فهو المصارع ـ وهو الذي بشّر بالحق ، فهو الهادي ـ وهو الذي جمع القوم ، فهو الموحّد ـ وهو الذي مات في سبيل تحقيق الرسالة ، فهو الخالد . إنه ـ إذاً ـ هو الأحق بتخصيص وتعيين من يقدر أن يعتني بالرسالة ، رسالته .

ولكنه لم يوص إلاّ من أجل الحفاظ على الرسالة ، لأنه كان يدرك أن الرسالة التي هي بين يديه إنما هو قيم عليها ، ولن تكون رسالة ما لم يشتغل بها ضمير الإنسان ، ووجود الإنسان ، وحقيقة الله في الإنسان ، فهي رسالة لا يملكها إلاّ الإنسان ، ولا تعيش إلاّ في تحقيق وجود الإنسان . أما الوصية بتعيين قيّم عليها فهي من ضمن حدود الرسالة التي زرعت جديداً في وعي إنسان لم يتحلّ بعد بالتمرس ، فهو إنسان مسحوب بتلابيبه من غفوة طال مكوثها تحت الرماد : في جاهلية مشرورة القبائل تحت أقدام الأصنام ، ومسحوبة الأذيال في رعي شحيح النبت والجنى ، محروق الظل ، ومسعور الإوار .

أي شيء كان لهذا الإنسان المفتش لاهثاً عن واحات يزرع فيها وجوده ؟ فلنسأل المساحات العريضة التي كان يزرعها بقدميه الحافيتين ، تنتقل به من فروسية موهومة ، يحقق بها بطولة التعدي والغزو ، على عزم لا يهدأ إلا بعد الأخذ بالثأر في استشارات مريضة قوامها استنزال الفأل من نجوم الليل ، والتيمن باللات ، والعزى ، ومناة ، لتكون له بنية عائلية مؤسسة على الوأد في الحفر السوداء .

لا لعمري ، ولم تكن الواحات أمامه مظللة بسماء ، لأنها كانت مفرقة على الساحات العريضة دون أن يجمع ما بينها إلا وازع خفيف من عقل، ووازع خفيف من روح . ليس للتنظيم في مجتمعات الإنسان إلا المعرفة كضابط له ، وهي التي يقدّمها العقل النامي بسبل الحق ، وها إن الحق قد جاء مفتون السبل لقد نزل في كتاب لهذا الإنسان المفتش عن كتاب .

منذ أن اندلعت على الجزيرة السنة الحرات ، وإنسان الجزيرة يفتش عن كتاب يلطف له الأجواء من قيء الرماد ، وكالغزلان الهائمة خلف كل رجرجة من سراب ، كانت تناديه الواحات ، دون أن يتسع فيها لقدميه مكان طويل الظل أو غزير الندى ، ليبقى له التوق إليها مقصوراً على مسارب كانت تتناولها أفواج القبائل النازحة بالتفتيش عن الظل ، والنسمة ، والماء . بتفتيشها هذا ، وبنزوحها عن الصدر الأم كانت تجد الواحات ، خلف خليج العقبة ـ مثلاً ـ مشرورة على طول الشواطىء ، وفي أحضان السهول والوهاد ، وحول كل ضفة من الضفاف ، ابتداء من السهول المفروشة حول الأردن ، إلى التي يباركها بردى ويمدّها بالزلال ، إلى تلك التي تنداح برفارفها إنبساطاً في أحضان الرافدين .

لقد كان كل ذلك تشتيتاً وتنزيحاً للقبائل ، وسلخاً عن الصدر الذي أنجب وربى ، ليكون لكل موجة نازحة حوملة حول المكان الذي راحت تخيم فيه وتبني عليه كياناتها الجديدة .

منذ زمن بعيد كان يحصل ذلك ، قبل الأراميين والأموريين ـ مثلاً ـ قبل الأشوريين والبابليين والكلدانيين والكنعانيين الفينيقيين والأكاديين ـ قبل موسى وحامورابي وسرجون . . . إنه الزمن الغائر في التاريخ ، ذلك الزمان الذي كان يقذف بالقبائل العربية إلى كل جوار فيه واحة، وفيه نسمة وفيه ظل، وفيه تربة مخصاب غير محروقة بزفت وكبريت ـ من هنا كانت العروبة المفتوحة الأرجاء ـ يميناً وشمالاً ـ ضمن حدود مبصومة بصماً بخطوات العروبة الجغرافية المجال ، باتصال الأرض ولو على حساب الحرات والاحقاف والربع الخالي ، والتاريخية المدى على ذمة امتداد الشموس في الزمان .

وجاءت الرسالة من أجل الإنسان التائه المفتش عن كتاب يقرأ فيه حقيقة وجوده ، ويجد فيه واحة راسخة البحبوحة يجمع فيها واحاته المشرورة والمهددة أبداً بالنشف .

وكانت العبقرية مصدراً فذاً في عملية التوحيد ـ ها هي القبائل كلها تنجدل الآن في الحبل الواحد الذي يزنر الإنسان حيث يوجد هذا الإنسان ـ

أكان في الفدافد المشوية بأنفاس الحرات ، أم في الواحات المتعشة بأنسام الصبا ، إنه الآن إنسان واحد في مجتمع واحد، يسخو عليه التوزيع في مساواة واحدة لا يضنيها الطمع والجشع أو الظلم والبهتان .

ذلك هو الأساس في الرسالة التي طرحت ، والتي طابت بها عملية التنظيم . أخذتها الجزيرة بكل قبائلها ، فحطمت بها أصنامها ، ومحت بها قبلياتها ، ومشت بها إلى تحقيق ذاتها ، وروت بها كل واحاتها التي كانت تعطش أبداً إلى الري الصحيح ، وجمعت بها إنسانها المشرد عبر التاريخ فوق البطاح التي ما ذاقت إلا نادراً طعم الخصب في التراب .

ألم تنجح الرسالة في طرح ذاتها على الإنسان الذي قبلها وحقق بها أشواقه التي جعلته أمّة هادية لكل الأمم ؟ فهل لهذه الرسالة أن تنتسب إلى غير صاحبها العظيم محمّد ؟ وهل لغير محمّد بالذات أن يهتم بنشوئها والحفاظ عليها ، بتعيين وصيّ ، أمين قادر على متابعة السير بها قدماً ، دون أي تراجع عن التحقيق العظيم المرجو لها في مجال الترسيخ ، ومن أجل هذه الأمة الناشئة حديثاً لتحتل مكانتها تحت الشمس ؟ .

القيمومة

لم يكن القصد في البحث السابق تجريد إنسان الجزيرة من عباءاته التي كان يرتديها في لياليه الساهرة ، بالنجوم ، فالأرض ذاتها هي التي حاكت له تلك العباءات من لون رمالها ، ومن نسج مساحاتها المرمية الأطراف ، وهي التي متنت قدميه بالعدو، وصبغت عينيه بكحل من سواد لياليها يتقي به ، في بعض ساعات النهار، وطأة الشمس وزفير اللهب. من هنا كانت له قيلولات يجمع فيها عقله ، وروحه ، وخياله ، في مناجاة للحقيقة الهاجعة في لبّه ، يهمزها لتهمزه إلى لقاء ، ومن هنا ـ أيضاً ـ كان له التهيؤ ـ وإن بطيئاً ـ مربوطاً بانتظار .

لم تتربع الأصنام في مكة حجارة نحتت هكذا بلا دليل ، بل إنها حملت من قيلولات ذلك الإنسان ما يجعلها فكراً مفتشاً عن رمز : فالصخرة البيضاء

المربعة في الطائف ـ مثلاً ـ والتي هي « اللات » ، إنما هي لتمثيل الصيف المعذوذب بالهدوء وطيب الجنى ، لتكون «العزى» عبارة عن ثلاث شجرات في وادي نخلة يتدلى من أغصانها ما تنوء به من تمر ، دلالة إلى الخصب الذي تفرشه في التراب لمسة الحياة ـ أما الطريق العريضة والمحروقة في آن ، والتي تخط الوصل الرائع بين مكة ويثرب ، فهي التي يتربع عليها الحجر الأسود ، إله الجزيرة « مناة » في رمز مسحوب المهابة من عمق الليل ولونه ، ليدل إلى الموت الملفوف بالقضاء والقدر .

ما ونى هذا الإنسان يجمع ذاته في قيلولاته الطويلة ، ولم تكن له هذه القيلولات إلا لقاء بين فكره وروحه واستعداداته للبحث والتحقيق . وحتى قفزاته الكشافة والمستمرة فوق الأرض ، والتي كانت تنتقل به من جوار إلى جوار ومن واحة إلى واحة ـ مع اليمنيين والحميريين ، والغساسنة ، والمناذرة اللخميين ، والهاشميين الطالبيين القرشيين ، أو الأزديين والبكريين ـ حتى النيل ، حتى الأرض من أفريقيا المطلة على المحيط ، حتى الشواطىء المتوسطة التي تخفرها صيدا ، وجبيل وأوغاريت . . . كانت كلها ـ هذه القفزات ـ دليلاً على استعداده لأن يكون كشّافاً عن حقيقته كإنسان ، وبحاثاً عن شؤون الحياة التي تربطه بالكون .

إنما هو ـ هذا الإنسان ـ إبن الجزيرة العربية بحراتها ، وواحاتها على السواء ، برمالها ، وغبارها ، ولياليها ، وشموسها ، وامتدادها في الزمان ، باستمرارها وترابطها بالزمان والمكان ـ فلنجزم أن الإنسان المجتمعي هو ابن الأرض كلها التي نشأ فيها ، وامتص أثداءها ، إبن أمسها الطويل حتى يكون ابن يومها الحاضر ، ويومها الذي يأتي دون أن يفقد معنى الإتصال ، إنما جسده هو المجبول من كل عناصرها المتجمعة من كل حجم المكان ووسع الزمان في التلاحم المتمكن من إنشاء الإنسان ـ إنما هو تعبير عن هذا الشوق المجموع النتائج ، والذي تصاغ منها عظمة المجتمع وبالأحرى عظمة الإنسان .

إن القيلولة التي انسحب بها الفتى الأمين محمد إلى غار مزروع في حنوة

من حنوات مكة ، كانت من الصنف الفريد . لقد تجمعت فيها ـ على مهل ـ كل قيلولات الجزيرة ، في عملية إستعراضية كشافة عن حقيقة الإنسان فيها عن جميع محاولاته في التحقيق ، عن جميع أشواقه المتعثرة وهو يجتاز المكان ويطويه الزمان ـ لقد رافق كل القبائل في كل مسيراتها : رافق الأراميين ـ مثلاً ـ ينتقلون إلى الشمال ، ويساعدون في بناء مدينة حلب والشام ـ رافق الكنعانيين الذين رماهم التجوال إلى شواطىء المتوسط حيث ساهموا ببناء صيدا وصور ، ونحتوا الحجارة في قصور رأس شمرا ، وأتموا صك حروف الأبجدية في سيناء ـ رافق الكلدانيين والبابليين والأشوريين وهم يمتطون صهوات الخيل نحو الكوفة والبصرة والمدائن من أرض العراق .

لم يكن زهيداً ما وفرته له القيلولة في غار حراء ، ولقد كان أكرمها سخاء عليه إتصاله بالخط المربوط بالجدود ـ إنهم هم الذين كان يؤول إليهم الاهتمام بأمر الإنسان في الجزيرة عن طريق سياسة تتلقط بكل أموره الحياتية ، ففي أيديهم كانت السقاية والرفادة ، والحجابة ، والندوة ، والقيادة ـ فهم القرشيون من بني هاشم ـ هكذا كان خطهم في الاهتمام بأمور الناس : من قصي ، إلى عبد مناف ، إلى هاشم الثريد المكنى بعمرو العلاء ، إلى عبد المطلب المكنى بشيبة الحمد ، والذي كان مثله يعتزل في غار حراء ثم يأتي ليفرق العطايا على بني قومه الذين سموا كلهم قرشيين أي مهتمين هم بدورهم بحاجات الناس .

قبل أن يخرج محمد من قيلولته في غار حراء ، كان قد جمع إلى صدره كل شؤون الإنسان ، وكل أشواقه في الوجود إلى الحق ، ليصوغ منها وحدة المجتمع الأصيل في رسالة واحدة القصد والنهج والتطبيق ، مبنية على جوهر الحقيقة في الوجود الإنساني .

تلك هي الرسالة العظيمة الجامعة والموحدة وهذاك هو العظيم الذي تلقّاها من مصدر الحق ، ومصدر الشمول ، ليكون هو وحده صاحب الحق المطلق في القيمومة عليها .

القصد من القيمومة

إذا يليق القول بأن القيمومة على رسالة الإسلام هي من حق الرسول العظيم ، فإن ذلك يعني أيضاً بأن الرسالة هي ملك المجتمع الذي قبلها ، وراحت تفعل فيه ، فهي ليست ملك الذي قدمها أكثر مما هي ـ بالتالي ـ ملك الذي قبلها فتجسدت فيه . إنها الحقيقة التي تقدمها الحياة في مجتمعات الإنسان . ولكن القيمومة هنا لا يتجرد منها إلاّ معنى واحد : وهو الإهتمام بأمر الرسالة إهتماماً مطلقاً ، حتى يبقى لها الإستمرار بالنسبة إلى قيمتها العظيمة في بناء مجتمع الإنسان ، من حيث تكون وتبقى فاعلة في حقيقة الملازمة . أما قيمتها الفاعلة فهي في تقديمها المثل الجميلة ، ومن أبهى نتائجها توحيد المجتمع ، وتوحيد مناهجه المستقاة من مصدر واحد فاعل. إن الذي جمع الرسالة بكل حروفها ، إنما هو ـ بالذات ـ ذلك الذي سقاها دمه ، وروحه ، وفكره ، وغوصه الكبير المندغم بالحق والخير والجمال ، وهو الذي تلحمه بها غيرته عليها حتى تستمر في حقيقة الملازمة الفاعلة والمتأججة بالشوق الذي لا يشتهي سواه مجتمع الإنسان .

من هنا يليق القول بأن الرسول العظيم هو القيّم الأوّل على رسالة هو قدّمها . . . بل إنما هي منه في التحام رائع ، واتصال بليغ الإندغام . أمّا القيمومة عليها ، من بعده ، فهو الذي يعينها قبل أن يرحل ، ويبيّن حدودها ومدى فاعليتها ، حتى تأتي من لون الرسالة بالذات : قيمة ، وفاعلية ، وملازمة ، ومدى استمرار ، ومن هنا ـ أيضاً ـ بمعنى التزكية ، سيبقى هو أبداً القيِّم الكبير الذي لا ينتهي دوره على الرسالة التي هي باسمه تبقى فاعلة إلى المدى الذي لا ينتهي ، ما زال للإنسان مجتمع يستمر ، وإنْ تخسر حرفاً من حروف اسمه الكبير ، تخسر ـ بالمقابل ـ ضلعاً من توازنها ، تلمح بوادره في خلل يطرأ على بنية المجتمع ، وعلى سلامة المسالك التي يعود إليها وَعَرٌ ، أو أشوكٌ من هشيم .

أما القيمومة ـ وإلى من تسند ؟ فذلك هو تحسب الرسول ، إذ يدعوه

الرفيق الأعلى ، فيغمض عينيه عن معانقة الشمس ، ويسبل يديه عن التلويح بالإشارة. إن الذي تسند إليه القيمومة هو الذي يكون مسحوباً من ضلع الرسالة ، من حقيقة الوجد وحقيقة الشوق فيها ، وهو الذي يكون قد تمّ له فهمها وتعشّقها ، فاندغمت به . إنه الأدرى به الآن ، وهو لا يزال جفنه يرف بالحق ، وأذنه تخفق بالدويّ الأعظم ـ إنه هو الذي يعينه من حرصه على الرسالة ، حتى لا تدب إليها رعشة من وهن . . . حرام ـ بعد التحقيق العظيم ـ أن تتعثر بالرسالة رجفةٌ تثنيها عن حقيقة الطريق ! .

بهذا التحسب المحق ، وبهذا الحق المتحسب ، كان للنبي الكبير أن يُلَمِّحَ بالقيمومة إلى الإمام علي المهيّأ لها ، على أن تكون من بعده للفتى المحسوب من شباب الجنة ، الإمام الأوّل الذي أُنزل عليه إسم الحسن .

أين هي المهمة ؟

فلنفصل الآن بين المهمّة والقضيّة ـ فالقضية هي الأساس، أما المهمّة فهي عمل يقوم في الحفاظ على القضيّة. وللإهتمام بها ـ شأناً حياتياً إجتماعياً ـ في النظرة المصيبة في البقاء ، والإستمرار ، والديمومة . إن القضية ـ إذاً ـ هي الرسالة التي بذل في سبيلها ما جعل الإنسان الجديد يعتنقها في وعي جديد .

من هذا المنطلق نقول : لقد تحققت الرسالة في جميع مبادئها ، وغاياتها ، ووضوح مراميها ـ لقد وضعت خطواتها على جميع الدروب التي أخذ يسلكها الإنسان الجديد ، لقد تمّ كل ذلك تحت عين المصطفى ، ومن ضمن عشر سنوات أرختها الهجرة ، وها نحن الآن في السنة العاشرة ، أي في السنة التي تمّت فيها حجّة الوداع ، في هذه اللحظة بالذات ، لحظة إغماضة عين القائد المشرف على الساحة يأتي دور المهمّة ، دور انتقال القيادة من يد إلى يد ، حتى تبقى المسيرة في خطّها النامي . ولكن اليد التي انتقلت إليها أثقال المهمة لم تكن هي التي دل إليها حرص الرسول ، وكانت الخلافة من نصيب أبي بكر الصديق بدلاً من علي بن أبي طالب ، الذي عليه لفافة الرضوان .

ونالت الغفوة بدورها جفني أبي بكر ، وها هي الدرّة المشهورة بيد عمر بن الخطاب ، يسوط بها ظهور أولئك الذين يعصون أوامر الله بعدم الإنصياع لعمل الخير ، والبر ، والمعروف ، في إتيان المنكر - إنها الرسالة ، لا تزال فاعلة في مجالها المكشوف ، دون أن تعمق ذاتها فتصبح في الدم وفي اللّبان .

وبدورها الدرة تنفتل إلى خنجر في يمين أبي لؤلؤة ، غلام المغيرة يغيبه في صدر ابن الخطاب ، ذلك الصدر الذي ما توسع إلا بمناهج الإسلام .

وانتقل الدور إلى عثمان بن عفان ، ولكنه كان - وهو يجمع القرآن إلى دفتين تقيانه من الغفلة والنسيان - غافلاً عن إعادة صناعة نول قد حطمه الرسول العظيم ، ونجّى الأمة من الأحلاف الكاذبة التي كانت تفرّق الجزيرة بدلاً من أن تجمعها - إنها صناعة القمصان : فهي لم تلبس أبداً في عري ، بل عرت دائماً من لباس . على هذا النول حيك قميص عثمان ، واجتاز به الدنيا وأثقالها ، وأوزاها ، إلى ذمة الرحمن .

وبعد اثني عشر عاماً ، طواها كلها - بأيامها ولياليها ، وثقل الثواني فيها - وصل الدور إلى الإمام علي فجاء يعالج الحكم بإعادة تحطيم الأنوال البائسة ، وتمزيق القمصان التاعسة ، وحفر الله في الصدور ، وزرع الحق في المهج ، وتلوين الدروب بالخطوات الحافية - جاءه ابن ملجم ، وهو لم يخلع قميصه البالي ! ولكن الأنوال لم ينفع بها التحطيم ، فهي لا تزال منقوشة في البال ، وأبو لؤلؤة هو هو خلف الحيطان المطمورة بالرمال ، خطواته منتعلة بسماكة الكبريت ، وخنجره مسنون بالسم ، ومشحوذ على الصدأ .

من أبي بكر الصديق ؛ إلى التاسع عشر من رمضان ، مسافة تقارب ربع قرن . أتراها كانت كافية لجلوة الإمام الحسن حتى يقوم بالمهمة التي وصلت إليه .

الجلوة

سيكون لنا البحث في الجلوة الأساس التي اجتلى بها الإمام الحسن ، وكان بها المجتبى . تمهيداً ، فلنطرح سؤالاً : ما هو الجمال ؟ .

ولكن الجمال ، قبل أن يكون تحديداً ، وتفصيلاً ، وشروطاً ، ومواصفات ـ هو أن تراه بعينك ، وحسّك ، وخيالك ـ بعقلك أنت ، وقلبك أنت، ووجدانك أنت، ولحظة ئذٍ يكون لك الإدراك المشع بالجمال الذي هو كل ما فيك من إدراك للحق الذي هو لك ، والذي هو إطارك . أما أنت ، فإنك لست الفرد الصغير ذا العين التي ترتج جائلة في محجرك ، بل أنت الإنسان المجتمعي الذي حقق فعل الوجود في الكون ، وامتلأ بالشوق الحي الذي يعبّر عنه المجتمع الحي . إنّ المجتمع ـ والنظرة هذه ـ هو الذي يحدد الجمال تحديداً نسبياً ، بالنسبة إليه ، وتحديداً مطلقاً ، بالنسبة إليه أيضاً ـ لأن كل نسبة فاليه ، وكل مطلق فاليه أيضاً ـ لأنه بالفعل يكون هو ـ المجتمع بالذات ـ هو الذي عيّن الجمال جماله ، ولن يكون الحق إلاّ جمالاً ، ولن يتجلّى الحق على غير الذي يسعى إليه ، وإن المجتمع الذي لا يقدر أن يسعى إلى الحق لهو المجتمع المتنكّب الذي لم يجد له درباً بعد إلى لمح الدفع الذي يبنيه .

هذ هو المجتمع المقصود بناؤه ، المقصود سحبه من الغفلات العجاف ، المقصود جمعه ضمن الدائرة العظيمة التي هي ملعبه في المكان والزمان . ما خار عزم النبي العظيم ، ولا ضمر شوقه ، ولا تقزم خياله ـ فليكن لهذه الأمّة العظيمة مجتمعها العظيم ، ليكون لها الإنسان العظيم ، فليكن منها نبيها ، ومن شوقه الرهيف قرآنها، ومنها ولها سنتها وشرائعها وشعائرها، نابتة منها ولها، من إيمانها بالحياة، من ديمومتها في اعتناق الحق، ومن تجرؤها لبناء حقيقة إنسانها . . . فلتكن منها النبوّة ، ومنها القاعدة ، وفيها الاستقرار ، وعنها الانطلاق بالهداية إلى جميع الأمم حولها ، حتى تجمعهم إليها روابط إنسانية تمتن التفاعل الموحد النظرة إلى الحق والخير والجمال .

أراني أشرت باقتضاب إلى مصدر جليل كانت منه فاعلية ممتازة في جلوة الإمام الحسن . ها هو في السابعة من عمره عندما ترك جدّه فراشه على الأرض ، إلى دثار من نور الحق ، إنه اليوم يتذكّره في كل لحظة تتقدم به إلى واحة التمييز ، وإلى استجلاء المعاني ، وفك الرموز ـ إن الشعاع الذي كانت

تتراسل به عين الجد إليه ، وهو طفل يلثغ بالحروف ، كان نوراً يتدفّق إليه ، كأنه نوع من شموس لا ثقل فيها للظى . إنه يجد في كل يوم يأتي وصفاً وتفسيراً ـ أكثر عمقاً وأشد بهاء ـ لكل تصرّف كان يداعبه به الرجل المهيب؛ لم ينس أنه كان يرتحله ـ دون أن يزجر ـ وهو فرق منبر في المسجد يخطب في الناس ، ويعلّمهم كيف لهم أن يتصلوا بالحق ، دون أن يهربوا من التعب الذي به سيلهثون إذ يجاهدون ، لأن لهاثهم بالذات ، هو الذي سيدرّبهم على صدق المسير . وأدرك الحسن أخيراً أن قبول الجد ـ وهو في المسجد ـ بأن يعتلي الحفيد ظهره ، دون أن يصد أو يزجر ، لم يكن فقط سماحاً له بالدلع ، أو فرط محبّة ليس لها أن تصد وتزجر ، أو ميعاناً بعاطفة قد ترتد على صاحبها بشحوب المهابة ـ إنما العظيم بالوصول إلى التفسير : أن الرجل الكبير ، لم يكن فقط لينحني أما البراءة، منادياً لها بارتحاله، بل متهيباً لها أمام الساجدين بين يديه لجمال الحق ، بأن الأبناء هم زينة الدنيا ، بأن الحب الوسيع يبنيهم للأمة معاول معاول ، بأن الأمّة جمعاء تناديهم من عالم الأصلاب إلى عالم الأرحام ، حتى يخرجوا بناة لها ، بزنود تناديها الأرض في العمارة المرصوصة بمداميك البناء : « تناكحوا ، تناسلوا ، حتى أباهي بكم الأمم يوم القيامة » وها هو الآن ، مثال للأبوّة المحبّة والمدركة ، والراضخة لتحمل مسؤولية الإنجاب ، وإن لم تكن المسؤولية الجليلة الآن ملقاة على من هما من صلبه ـ دماً ، وحبّاً ، وإيماناً ـ عليّ ذي الفقار ، وفاطمة الزهراء ، إبنتُه وأمه في آن ، بالطهر والحنان .

أما التفسير الذي كان يرميه طويلاً في ساحة عريضة من ساحات التأمل والتهيّب ، هو أن اعتلاءه ظهر جدّه ، وهو فوق منبر الصلاة ، هو دعوة من الجد القدير ، في إيماءة لها من الضوء ما يخفيها عن العيان ، ومن القصد ما يجعلها في عيان يطويه الليل إلى صباح يغرق في تباشيره . تلك هي عملية باهرة وماهرة من عمليات المبايعة ، إنه هو ـ الرجل العظيم ـ أوّل من يبايع ، وأول من يدعو الناس إلى المبايعة ، إنه يعرض إبنه الحسن من فوق كتفيه ، ويدل إليه بزنديه ، وعينيه ، وبشموخ من فوق كتفيه ، وسيقول عنه بأنه من أهل البيت ، وأنه سيد أهل الجنّة ، وأنه من بين الذين طهّرهم تطهيرا ، والذين هم أحد

الثقلين ، والذين هم المطيّبون ، وهم الذين يبرزون على الخط الموصول بالأجداد ، وإنهم هم الذين يردون عليه الحوض ـ والحوض الآن هو الأمّة جمعاء ـ الأمّة المستيقظة من هجعتها ، والأمّة المجموعة بوعيها ـ لقد جمعتها الرسالة ، وهو الذي جمع الرسالة ، وهو وعليّ ، هما أبوا هذه الأمة التي هي أرث الأجيال ، والحسن والحسين هما ـ بالتتالي ـ خلفان تتم بهما عملية الربط بالخط الضابط في المسيرة ـ أليس الحسن من هنا سيتناول التركيز ؟ ومن هنا سيبدأ بالمسيرة ؟ .

القسم الثاني

المراحل

وصلة البحث
السقيفة
أبو بكر الصديق
فاطمة الزهراء
عمر بن الخطاب
نبذة في الواقع
عثمان بن عفان
غمزة
الإمام علي ـ المنحَى
الإمام علي ـ الخليفة
الحسن
معاوية بن أبي سفيان

وصلة البحث

فليكن لنا ـ قبل أن نستهل القسم الثاني من هذا الكتاب ـ تؤطئة توضح القصد من الدخول في فصل جديد عنوانه «المراحل» .

بالحقيقة ، إن القسم الثاني من هذا الكتاب لا يخرج في مؤداه عن أن يكون امتداداً لكل ما جاء في القسم الأول الذي هو « أطر وملامح » ـ فالمراحل التي سيمر بها الإمام الحسن ، منذ خلو الساحة من جدّه الرسول ، إلى الساعة ذاتها التي ارتحل فيها ـ هو الحفيد ـ إلى الحضن الرفيق ، كانت كلها أطراً له ، وملامح عنه ، تلوّنت بكل ما جناه من الاختبار في الحياة ، لم يتمكن من جعل نفسه ـ وبالتالي ـ من جعلنا معه نفيد منها في مدار التطبيق ، إلا نزراً يسيراً ، قد يصبح جداً وفيراً عندما تدرك الأجيال الصاعدة كنهه الوسيع .

ومن الحقيقة أيضاً أن نشير إلى أن القطعة الأخيرة من البحث السابق وعنوانها « الجلوة » ـ لا تمنع عن الحسن حصول جلوات متلاحقة ومستمرة في كيانه النفسي ـ العقلي ـ الروحي . إنما كان تفهمه لمقاصد جده الكبير عاملاً بليغاً في تحضيره القادر على الاستيعاب ، وفي تمتين منكبيه لتحمل المسؤولية الجسيمة التي يجب أن تكون في موازاة الرسالة التي بلغتها شفة لم يمكنها أن تنتسب إلاّ إلى أهل البيت . أما الجلوات المتتابعة والسريعة التلاحق ، فهي التي يمشي إليها الآن في هذا القسم الثاني من هذا الكتاب « المراحل » ، مشياً وئيداً . من

مرحلة إلى مرحلة سيمشي : من إبن سبع سنوات ، إلى أن ينتهي به الشوط ـ مع أمّه التي كان يفرك وجنتيه بملامس كفيها ، فيشعر أن جنان النعيم كلها ليس لها مثل هذا النعيم ـ وتموت أمه بين يديه ، فيأبى أن يصدق أن في الجنة الموعودة قطعة أوسع وأخشع من مثواها الصغير في البقيع .

لقد انتقلت به خطواته ـ من قبل ـ وهي صغيرة بعد ، إلى حيث يلقي رأسه الصغير في حضن أبيه الكبير الذي هو الآن ـ في تصوُّره ـ في المركز الذي حضّره له جده الذي غاب وهجر . . . ولكن قدميه الصغيرتين ترتطمان بالحفر التي تصونت بها دار السقيفة ، سقيفة بني ساعدة ـ ويركض ملتاعاً . . . في الزاوية الصامتة وجد أباه وأمه التي لم يكن قد أجهز الحزن عليها بعد ـ وهما يجتران ـ على مهل ـ أذىً لا يقدر أن يتحمله إلا من تطيبت نفسه بنفحة من نفحات نهج البلاغة .

في مثل هذه التنقلات الوئيدة ستزداد ، رويداً رويداً جلوة الحسن . فليكن لنا أن نجده متأملاً وجه أبي بكر الصديق الذي احتل المركز الذي كان منتظراً أن يملأه أبوه، فإذا هو الصديق فيه . . . فليكن لنا أن نرافقه إلى مواجهة الخليفة الثاني ، عمر بن الخطاب ، بدلاً من أبيه أيضاً في استلام دفة السفينة . . . فليكن لنا كذلك انتقال ثالث في المواجهة إلى الخليفة عثمان بن عفان الذي تولدت في حضنه الثورة الجديدة التي قضت عليه ونقلت إلى أبيه ورماً أبيض ، لا بد أنه تثاقل على الرجل الجليل في كل ما عاناه في إدارة الناس ، أكان في معركة الجمل ، أو في في معارك النهروان ، أم في صفين ، مما أدىٰ به أخيراً إلى السقوط صريعاً فوق الساحة التي مشّت فوقها رجلاً مثل ابن ملجم .

ستكون للإمام الحسن مشاهدات غزيرة المادة لهذه المسرحيات التي مرت فصولاً من أمامه ، وسيكون لكل مشهد منها حفر معيّن في نفسه ، وجلوة جديدة مضافة إلى كلٍ من الجلوات السابقات . فلننظر إليه كيف يجتاز هذه « المراحل »

بخطوات متأملة ، صاغت منه غوّاصاً وجوّالاً يعرف كيف يغوص ، ويعرف كيف يمشي .

السقيفة

ليت الإجتماع هذا الذي حصل في السقيفة ، قبل أن ينقل جثمان الرسول إلى مقرّه الأخير ـ ليته حصل في الكعبة ، وفي دار الندوة بالذات ، وفي ظلّ القواعد التي كان يتربّع فوقها العدد الكبير من الأصنام ، لكان الاجتماع هناك يحظى بتمثيل قبلي أوسع بكثير مما حظي به في حضن سقيفة لبني ساعدة ، جمعت عدة ممثلين فقط ، من مجموع القبائل .

ما هو رجاؤك أيها الرسول الكريم في أمّة سحبتها من كل قبلياتها إلى قبيلة واحدة تنادي بإله واحد ، لا بألف إله ! ولقد ناديتها ، وسمعت منك النداء . في مدى عشر سنين فقط ، من سني الهجرة ، إبتداء القرار ، وانتهى القرار ، لم يبق في الجزيرة كلها قبيلة واحدة تركع بين يدي صنم لها ، لقد انجدلت كلها جدلاً غزيراً ، وجاءت من أطراف الأرض تبايع الذي ألبسها لباس الحق ، ولباس التوحيد ، ولباس الرشد ، والهداية ، والعدل ، والمساواة ، ـ لباس الإنسان الجديد الذي اكتشف ـ في نفسه ـ قيمة الإنسان .

منذ السنة الأولى بدئت تبني المساجد المتطاولة بمآذنها التي تصرخ بالناس : كونوا واحداً لإله واحد يعلمكم كيف يبني التوحيد النفوس ، في ظل من خير ، وظل من معروف ، وفي كره عابس بوجه المنكر ـ وفي السنة الثانية ولد للناس شهر كريم سمي رمضان الصوم : إنّه مدرسة الإسلام في التركيز على إهزال الجسد إذا ما حاولت أن تستبد به شهوة من شهوات الدم ـ على أن يكون معنى الصوم إبتعاداً قاسياً عن الموبقات التي تتغذّى منها الفواحش ، وهي قواصم من أنواع الجرذان ، تقرض الحبال ، وتفكّك الرّزْمَ في المجتمع الذي لا يبنى إلا على الحق ، والعدل ، والتطيّب بالفضائل ، وكلها مآثر في المجتمع النظيف المبني على الحب ، والوفاء ، والولاء . من هنا كانت ـ من رمضان ـ أمثولة صدقات

الفطر ، وزكاة المال ، وإنعاش الفقراء ، وكل من يخسرون معيناً لهم في الحياة : كالأرامل ، والأيتام ، والمشردين ، والذين تصيبهم أمراض وعاهات .

وفي السنة الخامسة ولدت فريضة عظيمة المعنى ، وبعيدة المقصد والمرمى - إنها فريضة الحج إلى البيت العتيق - لا لأنه حجارة يابسة ليست لها ريشة من فنّ - بل لأنها تمثيل لبيت الأمة المزروعة في صدر المكان ، وصدر الزمان - إنه البيت الذي بناه خط الأجداد ، عبر آلاف السنين ، إنه بيت نقشته أشواق القبائل كلها ، مزهوة في الإجتماعات الواحدة الطويلة فيه ، لا لتعبد الأصنام ، بل لتحضرها كلها للإنحناءة أمام الذي سيفرطها إلى غبار ، ويجمع منها الحجر الأسود ، حتى تشاركه كل القبائل بحمله على منديل ، ووضعه في المكان الأعلى والمصون بالإيمان ، والموسوم بالإشارة إلى الله الواحد الممثل التجسيد في حجر .

ذلك هو الحج إلى البيت في التذكير أن الأمة جمعاء ، هي وحدها التي يجمعها الرباط ، رباط الحاضر بالماضي ، ورباط الحاضر بالآتي ، في ظل الرسالة الجديدة التي قلبت المفاهيم إلى وحدةٍ ما محت الماضي ، بل طوّرته ولوّنته بمجالات الحب والمؤاخاة ، وهي كلها آفاق جديدة مفتوحة أمام فكر ونفس الإنسان .

وفي السنة السادسة كان غزو الحديبية ، ليتلوه صلح الحديبية ، وهو صلح ربط الهاشميين - الطالبيين بالسفيانيين - الأمويين ، وامتنعت بتوحيدهم قريش - وفي هذه السنة تمّ انتشار الإسلام بكتب وجّهت إلى هرقل قيصر الروم ، وإلى المقوقس أمير مصر ، وإلى النجاشي ملك الحبشة ، وإلى كسرى ملك فارس - إن الهداية التي تتنوَّر بها الرسالة هي للنشر على عالم الإنسان؛ كذلك هي الشمعة المضيئة - لتنير ، لا لتوضع تحت مكيال . . . إن السنة السادسة هذه ، كانت متينة الإنجاز ، لأن القبائل كلها مشت طريق التوحيد ، ولفَّها التسليم والإذعان .

لم يكن قليلاً ما أنجزته الرسالة على السنوات العشر من الهجرة ، فالموضوع من الكتاب لم يأخذها كلها في عرض إحصائي وتاريخي ، واكتفى - من

السرد الضئيل ـ بالإشارة إلى أن التحقيق العظيم الذي حصل ، إنما كان نتيجة توحيد القبائل كلها حتى تم للرسالة الإنتصار ، ولقد قدمت السنة العاشرة فصل الختام في حجة الوداع ، وفي خطبة الوداع ، فليكن لنا ، بخطبة الوداع ، ربط باجتماع السقيفة التي هي الآن في المجال .

كثرهم الذين قالوا بأن خطبة الوداع خلت من وصية تخصص الخلافة بشخص عليّ ـ وكثر أيضاً هم الذين قالوا بانهم سمعوا الوصية ـ هنا وهناك ـ بتمام العكس ، فأهل البيت هم المشار إليهم ، بتمام القصد ، وبوضوح الكلام ، فليكن للفئة الأولى عذر بأنها لم تتسمع إلى وصية خصّت بالإمام ، ولكنها لا تقدر ـ في تغافلها ـ أن لا ترى أن للإمام مركزاً شديد الإلتصاق بالنبيّ ، ولا يجوز أن يقابل ذلك بعدم الاهتمام ـ فعلي هو الربيب في البيت ، وهو الأمين على المكرمات ، وهو الرفيق في كل المهمات والملمات ، وهو المساعد الممتاز في كل عملية من عمليات الكفاح ، وهو الذي شارك في الدفاع بسيفه المشهور : ذي الفقار ، وبزنده المفتول : لا فتى إلا علي ، وبقوله المسبوك في نهج البلاغة ، وفي الرفقة الطويلة والمديدة الإتصال ، وفي كونه رفيقاً وزوجاً لفاطمة الزهراء ، إبنة الرجل الفريد الذي خصها بحب فريد .

سيان إذاً : سمعت الوصية أم لم تسمع ، ولم تكن ـ في رأيي ، بحاجة لأن ينطق بها ، فهي في المكنون أبلغ ، وبغير الحروف لهي الأفصح ، ولها ـ في النيّة المخبؤة في العين ، وفي القلب ، وفي الضمير ، وفي مجرى الأحداث ، وفي الخطوات المحفورة في الساحات ـ كل الدلالات في التعبير عنها : بأنها وصيّة مخصصةٌ برجل موثوق به ، ومرزومةٌ له رزماً أنيقاً ومدروساً ومقصوداً ، فالرسالة ذاتها ، لا يمكن أن تتابع سيرها ، على الخطوط الطويلة بدون من يتداركها وهي في ذمة الجهاد والصراع .

جليل أمر السقيفة ، يذعرها غياب الرسول ، ليطل لها الخوف على الرسالة التي هي الآن ركن أساس في تلمس الإنسان حقيقةً بدت للعيان ، وهو ـ بها ـ راح يؤرخ وجوده المجتمعي الناهض من عتمة النسيان .

ولكن الأمر الجليل هذا ، لم يسنده حسن التصرف ، ولم يجمع الرأي الذي صوبته الرسالة ، وقومته مناهج الرسالة ، وغاياتها ، ومراميها ـ فالرسالة التي جمعت إنسانها من كل قبلياته ، لا يصح الآن أن تملأ فراغاً بغير هذا الإنسان ذاته ـ وبدلاً من أن يُستدعى عليٌّ لملء هذا الفراغ ، كان له أن يستبعد ، حتى عن الإستشارة .

لا يجوز أن يحسب هذا الكلام دفاعاً عن علي ، ليست القضية ـ بتاتاً ـ قائمة على هوى ، إنما هي مبنية ـ مسبقاً ـ على نظرة مختصة بالرسالة : من أين كان لها أن تنجح ، وكيف كان لها أن تثبت وتستمرّ ـ نجحت بالتوحيد ، ولن تعيش لحظة واحدة بالتفرقة ، من هنا صح سحبها من القبلية حتى تثبت أركانها ، ولن تعاد إليها فتحصل زعزعتها ، فتخسر منذ الآن ـ قبائل الجزيرة ـ إرتباطاً بعروبة تخسر قيمة الإنسان ـ لا بل فلتتعزز جميع هذه القبائل بعروبة مجرَّدة من كل عصبياتها المهدورة القيمة ، ليكون لها في الإسلام وحدة جامعة وواعية بالحق ، تبرزها أمة هادية للأمم ، مما يجعلها في حقيقة الصف المتحضّر الذي تؤخذ منه القدوة في بناء المجتمع الصحيح المبني على الصواب في حقيقة بناء الأسرة الإنسانية التي تعززها روابط متينة مشدودة بالحق والرشد والعدل والجمال .

تلك كانت نظرة الرسول الذي برأ الرسالة التي يتزاحم الغيارى على صيانتها الآن في إجتماع السقيفة . لا أيها الأسياد ، أكنتم من الأنصار ، أم من أهل الصحابة ، ليست الخلافة كرسياً للتوازن الطائفي بين قبيلة وقبيلة ، وليست مركزاً محصناً لتثبيت الزعامة ، والسيادة ، وجني المغانم والرفاه ، إنما هي ـ في الأساس ـ تأدية بليغة لبناء الإنسان الذي يكون عماد الأمة ، وليس لها الآن ـ والآن بالذات ـ محيد عن تثبيتها في الإعتبار بأنها سياج للرسالة الطرية العود ، ولا يجوز أن يتسلمها أيٌّ كان ، بل المعدُّ لها إعداداً مربوطاً بها تمام الربط .

لم يخصص الرسول الكريم علياً بهذا المركز الممتاز لأنه طالبيّ بل لأنه أكثر من طالبيّ ، لكونه لمّاحاً رائعاً لكل ما يتعلق بشؤون الإنسان ، وما تحققه المثل

في تنشئة الإنسان ـ ولهذا تعلّق به ، وضمّه إلى رفقته الطويلة ، وخصّه بابنته فاطمة التي لمح فيها ذات البناء النفسي ، ليكون له منها ذرية تسهر على صيانة الرسالة وصيانة الأمّة ، وهذه هي الأمانة .

لقد كان التحضير المدروس هذا تجنيباً للأمة من الوقوع في عمليات انتخابية لا بد أن تستيقظ فيها القبلية التي لم تمح بعد من النفوس ، ويحصل الإنشقاق المخيف الذي لم يكن له غير خزي سخيف .

فيما بعد ـ عندما يحين الوقت الثمين ـ عندما تكون قد حققت الرسالة فعلها في الإنسان ـ عندئذٍ يصح أن تلتئم النخبة ـ تلك التي لا قبليَّة فيها ، بل هي القبائل كلها في واحد واع ـ حيّ ، لتعيين من هو الأنسب والمهيأ لأن يكون المتولّي سياسة الأمة المثقفة والمحضرة لأن تكون سيدة نفسها في تثبيت مركزها العظيم فوق الأرض أرضها وتحت عين الشمس .

لقد عيّن اجتماع السقيفة أبا بكر الصديق ـ للخلافة ـ قد عينه البكريون التيميون لا الطالبيون ـ خط السفيانيين الأمويين ، لا خط الهاشميين ، ولقد وعى ذلك الإمام عليّ ، دون أن يدرك الفتى الحسنُ عمق الخطر في يقظة القبلية التي لا يمكن أن تحرس الرسالة ، بل تهددها بالإنقسام . سيكون للحسن ـ رويداً رويداً ـ هذا اللمح ، وسيتعلم معالجة الداء عن أبيه بالذات ـ أبيه الذي رضخ للواقع ، وراح يعالجهة بصمت .

أبو بكر الصديق

أعزَّ عليَّ أن أقع في هواك من أن أهبط إلى قلاك ـ فأنت أول خليفة أسندت إليه قيادة الأمة ، وأول ضلع في صدر الإسلام ، تسلّم الراية وتمتع بالزمام ، ولقد طاب على فمك قول يلهج بالرسالة ، ويتمنّع بها ـ إن الرسالة هذه هي التي أنت مهدت لها النزول إلى الساحات التي قضمت من نعليك وأنت تهاجر معها في الزمان وفي المكان ، من ليل إلى ليل ، ومن مخبأ إلى مخبأ : فأنت

أول المهاجرين ، وأول الصحابيين .

يا أيها الرفيق الجليل القدر ، ويا أيها اللمّاح صدق المرامي والمغازي ـ ما من نيّةٍ واحدة من نوايا الرسول، وفاتك فهمها وإدراكها، فهلا لمحت قصده في التشديد على حبّ عليّ ، وأبرازه في الساحات ، والاعتماد عليه في الملمات ؟ هلا لمحت حبّه الوحيد لفاطمة ، كيف يغدقهُ عليها وعلى إبنيها اللاعبين أمامك حتى في ساحة المسجد ؟ هلّا لمحت ـ من هنا ـ التخصيص والتعيين ، وأدركت المعنى ، بأنه لا يجوز استدعاءُ القبائل إلى أية مبايعة ـ فليكن الاقتصاد في التعيين المركّز ، لا العودة إلى القديم البالي الذي يردّ القبليّة إلى تثبيت وجودها من جديد ـ إن التعيين هو ابتداءُ الحصر بالقياديّ ، المتمرس طويلاً بالرسالة ، لا بالتفتيش عنه بين زعماء القبائل ، لتبقى الأساليب ذاتها : مبايعة لا تفهم ، وقبلية تستدعى على فوضى .

أظن أنك أدركت ذلك أيها السيد ، وأظن أنك لم تطق الحصر والتعيين . أنت صديق حميم لعمر بن الخطاب ، وهو لا يطيق الحصر والتعيين . . . لا شك أنه نقل إليك ذلك ، فهو الشهير بقوله : (لا تجتمع نبوة وخلافة في بيت واحد) ـ من هنا كان لابن الخطاب حزم وجزم ، ومن هنا ـ أيضاً ـ كان استعجالك في قبول الخلافة عن طريق طرح المبايعة ، حتى لا تتصل بالطالبيين ، لا من أجل إنالة الأمة حقاً من حقوقها الكبيرة ، ولن تصل إليها قبل أن يرزمها الوعي والنضج إلى صراط مستقيم .

من هنا إن الذين بايعوك ، ما شدّ بهم إلى هواك ، هذا الذي هو كل معناك ، إنما هو حقد قديم موروث عن تناحر القبائل فيما بينها ، نتيجة تصارعها في الرعي حول كل تربة فيها عشبة للكلأ ـ إنما هو ، بالفعل ، قد تجسّد في التصرف ، لتكون أنت ـ والله أعلم إن كنت تدري أو لا تدري ـ أول البادئين بتجريد الهاشميين من القيادة والرفادة والسقاية ـ ألم يكن الصراع هكذا بين السفيانيين الأمويين والهاشميين الطالبيين ؟ فكما كانت تفصل بين الانتماءين ،

قيادة عن رفادة ، أو حجابة عن سقاية ، فلتفصل الآن نبوّة عن خلافة ، دون أن تكونا مجموعتين في الخط الواحد الذي حصّل الزعامة ومنّعها بالنبوّة .

نحن الآن ـ أيها السيد الجليل ، ويا أيها الشيخ الصدّيق ـ تفصلنا عنك في الزمان أربعة عشر قرناً ، دون أن تنفصل عنا فضيلة مارستها أنت بالذات فبنت ، أو غلطة حصلت آنذاك أيضاً فأنبتت معاناة وقعت فيها الأمة ولا نزال نعاني منها ، ولا يزال يصلنا بها الواقع والمصير ، والارتباط الدائم الموصول المكان بالمكان ، والزمان بالزمان ، والحاضر بالماضي وبالآتي .

عفو الله ، وجل من له أن يقاضي ، فإن الخطأ الذي يقع فيه الفرد ـ فليكن من هو هذا الفرد ـ أكان في مركز الحكم، أو مركز الصدارة في الحكم ـ فإن المسؤول الأساس عن كل خطأ في حصوله ، إنما هي الأمة في مجموعها : من تمرسها في الحياة ، من عاداتها ، وتقاليدها ، وتنكبها عن الصدق في السير ـ فإن كنتَ قد رضيتَ الوصول إلى الخلافة عن طريق إنعاش القبلية التي وأدها الرسول الكريم ـ بلا حزن عليها ولا تأسف ـ فإنك تكون بحاجة إلى طلب الغفران ! وتكون الأمة مدعوة إلى صبر آخر يمكنها من إنجاز ذاتها من جديد في محاولة فهم الرسالة التي أعدتها إعداداً جميلاً يتّزن رويداً رويداً بالمراس والمران .

ثلاثة ، يا سيدي ، ورابعهم قلم يكتفي أن يرسم الآن فيك ، جاؤوك ، لا ليفرضوا عليك قَوَداً ـ بل حتى يؤازروك :

ـ رجل متين المنكبين ، قلع المزلاج ورمى بحجارة الحصن على بني خيبر ، وهو متين العقل ، ومتين النهج ، ومتين الحجّة ، ومتين الصلة بالقرآن وبالإسلام ، يجمعك به أنّهُ من بني قريش ، على فاصل رهيفٍ كحد السيف ـ إنه من بني طالب . جاءك متناسياً أنه الصفة التي تتصف بها أنت الآن ، وبايعك بها ، حتى ينعم لك فيها هذا الجلال .

ـ وامرأة نحيلة كأنها شفرة رمح ، أو كأنها وَتَرٌ يَظُنُّ أنه مرخيّ ، ولكنه مشدود إلى قيثارة تطنّ عليها ريح صرصر ، ريح مقلوعة من جوف صنج من نحاس . . .

لقد ظننت أنا ـ وهي كذلك ـ أنها تعبير عن ثورة لم تنضج بعد ، فاكتفت بوشاح من زهر طوقت به عنقها وهي تمشي إلى الجهاد . . . جاءتك تطالب بما ورَّثَهَا أبوها من فدك ـ فلم تردَّ أنت إليها طلبتها ، بحجة أنَّ الأنبياء لا يُورِّثون ، ونسيت أنهم : إذ يُولَدون ـ بحكم الطبع ـ يُورِّثون .

ـ وفتىً لم يبلغ الثامنة بعد ـ جاءك متعلقاً بذيل أمه فاطمة الزهراء ، بنت النبي الذي كانت صحبتك له سبباً لهجرتك عن مكة ، وأساساً رائعاً لإسلامك الذي تمثله الآن بعده في الخلافة ، وابن العظيم عليّ الذي هو رفيقك في كل ساعات الجهاد . أما الحسن ، هذا الفتى ، فليقول لك ، وهو الملفوح بشمس الطريق إليك : كانت لنا شجرة الأراك قرب بيتنا المحروق بالشمس ، وليس لنا سواها في ظلّ ، ولقد اقتلعوها ، وأنت تدري من ، واقتلعوا معها كل ما لنا من فيء ـ من يردها لنا ؟ .

وجاءك مرّة أخرى وأنت تخطب من على المنبر، فقال لك : أنزل عن منبر أبي .

ونظرت إليه ، ودمعت عيناك وقلت : إنه لمنبر أبيك حقاً ـ ولفك هو بعينيه المفتشتين عن كل جلوة يتبصر بها في الغد الآتي ! .

فاطمة الزهراء

وفاطمة الزهراء ـ ليس لها في التاريخ صفحة تقرأ فيها سطوراً ـ بل أنك لَتقرأ بضع كلمات ، إذا طاب سمعك لها ، تجد أنّ عليها نتفاً أَرِجَةً ، يتوضّع بها الجوّ ، دون أن تراها العين كيف تموج بالأنس وبالعطر اللذين هما فوح بلا جسم يؤخذ بلمس ، وبلا لون تشربه حدقة .

كل ما ذكره التاريخ على ألسنة النسّابين يحصره عمود واحد :

ـ أبوها الأمين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي .

ـ أمها الطاهرة خديجة بنت خويلد بن أسد القرشي .

أخواتها ثلاث وهي رابعتهن وصغيرتهن النحيلة .

ـ ربي البنات الأربع بدون أخ لهن يسندنه ويسندهنّ « بالحب الأخوي » .

ـ ماتت الأم وفاطمة صغيرة ، فغرقت في حضن أبيها .

ـ خصها أبوها بحبّ عامر وفريد .

ـ جاءها عدة طالبين للزواج ، منهم أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، فلم تحصل استجابة من قضاء الله .

ـ طلبها للزواج ابن عم أبيها ـ علي ـ ربيب البيت ، فتمتم جبريل بالبشرى .

ـ حضنت أباها كأنها أمه ، واشتهرت بكونها أم أبيها ، وبأنه بضعة منه ، وبأنها مع زوجها وابنيها أهل البيت ، وبأنهم المطهرون ، وبأنهم من أهل الجنّة ، وبأنهم هم الذين يردون عليه الحوض .

ـ سكنت بيتاً ، بعد الزواج ، لحارثة بن النعمان ، مشترك الحيطان ، وخلف الحائط الثاني كان ينام أبوها .

ـ ولدت الحسن والحسين وابنةً هي الثالثة ، ثم خطفها الموت عن عمر لم يتجاوز العشرين حزناً على أبيها الذي غاب قبلها بعدة أشهر .

ـ حُصِرَ بها إرثُ أبيها ، وبابنيها ميراثٌ آخر ، دمغ بالإمامة .

ـ تفوهت بخطاب واحد ، في باحة المسجد ، بوجه الخليفة أبي بكر الصدّيق ، تطالب فيه بنحلة هي ـ فدك ـ خصّها بها أبوها ، فقطعت عنها بعد أن طوى أباها الغياب .

ـ من صفاتها :

ـ إسمها ـ فاطمة = أي مفطومة عن النار هي وذريتها .

ـ البتول = أي تعذر من يماثلها بالطهر .

ـ الحوراء = أي لم تحض ولم تطمث . .

الصدّيقة = أي الصادقة في تكوينها الروحي والمادي على السواء .

ـ الزهراء = ربما المشتقة من الأزهرين : الشمس والقمر ، ومن اجتماع النورين : عليّ وفاطمة .

تلك هي فاطمة في التاريخ ، ولقد اجتهدت الأسانيد المتكررة في إبراز ذلك مع إشارات بالشرح والتعليل يبقيان يابسين على مضغ واجترار مملّين .

والحقيقة أن فاطمة هي تنزيل في خاطر الرسول ـ ما أن أخذها عن صدر أمها خديجة إلى حضنه الأبوي ، حتى شعر بأنها الشوق الهائم في روحه منذ اللحظة التي تجسد هو فيها من تربة الأرض ـ هكذا بنيت أوصاله على شفافية من الوجد ترنحت به الآن ، وهذه الطفلة بين يديه ، يقرأها قراءة مستجيبة إلى كل أحاسيسه المتأثرة بهذا النوع من البراءة ، والنعومة ، والأنوثة الفريدة الملامح . إنها وحدها ـ فاطمة ـ دون أي طفل في الوجود ، قد فعلت في أبيها ، ما قد فعله الانبعاث ، لكأنها هبطت عليه مبزغاً من تلك المبازغ التي كان يستنير بها كلّ وجوده الشفاف ، حتى لكأنها تجسيد لجبرائيل ، يتقبل منها الوحي المنعش المملوء بالعذوبة ،والأمل الموصول بالغد الأكبر ـ إنها بين يديه سر ينطوي فيه حبّه لخديجة أمّها ، تلك الشمعة التي تذوب في حبه ، وينطوي فيه حنينه المشتاق إلى آمنة ـ أمّه ـ تلك التي أهزلها الفقر ولم تناوله ثديها ، فاستعاروا له أمينّ غيرها : ثويبية ، وحليمة السعدية ، ما كان لهما إلاّ أن تعمقا حفر الشوق في قلبه إلى أمّه الكبيرة التي نزلت في جدثها ، قرب مكة ، في الأبواء ، وهو بعمر ست سنين ، ولم ينعم برؤياها أكثر من ستة أيام ـ أجل ، إن فاطمة ـ بين يديه ـ سرٌّ ينطوي فيه أيضاً هذا المبهم المتلاعب في أحاسيسه المتزاحمة فيه إلى تحقيق كل عظيم لا يزال هاجعاً إلى غد تستيقظ فيه أحلامه ، وأمانيه ، وآماله .

لقد انعكس كل ذلك في تصرفه مع حبيبته فاطمة ، فكانت تنمو بين يديه كأنها الزنبقة البيضاء ـ كأنها عطره ، أو الطيب الذي يحب أن يتطيّب به ـ كأنها الأمل الذي لا يجوز له إلاّ أن يكبر ـ كأنها العذوبة التي لا يسمح لها إلاّ أن تتمسّح دائماً بالجمال ـ كأنها الشوق المطهّر بنار ليس فيها رماد ـ كأنها الأم يطهرها الحب ، وتغسلها الأمومة بماء الورد وكل أزهار الجنان .

كيف يقال عن فاطمة الزهراء أقل من هذا ؟ وهي في عين أبيها أوسع من سماء . . . من هنا هجيّ إسمها ولوّنه بالصفات : فهي بلا إثم ، ولن تدخل قصاص النار ، ولهذا : فهي فاطمة ، وهي البتول ، وهل في الأرض كلّها إلاّ مريم تماثلها بالطهر والعفاف ؟ وهي الحوراء لأنها منسوجة من شفافية الطهر والجمال ، ولا شيء فيها ينضح بغير العبير الزلال ، وهي الصدّيقة ، وهل أبهى

من عينيها المعجونتين بقلبها البكر ، وطهرها الشفاف ؟ وهي الزهراء ، وهل الأزهران أبهى منها وأنقى ؟ .

يا للنبيّ العظيم ! يرى ما لم ير ، يربط الأيام ، بعضها ببعضها الآخر ، فلا دابر يموت ، ولا حاضر يفنى ، إن الغد العظيم هو الذي يولد ، وهو الذي يبقى ، والرسالة التي هي لأجل هذا الإنسان ، إنها مولودة من أمسه الدابر ، ومن يومه الحاضر ، إلى الغد الزاهر الذي لا يجوز له أن ينطفي .

وفاطمة الزهراء ، والتي هي نصيبه الأوحد في المجال ، وفي الإستمرار ، وفي تمام الصفات ، إنما هي منه في الخط النزيه ، وهي منه لمتابعة الأشواط ـ إنها للغد الذي يأتي : فلا تفنى اللحظة الواحدة في الرقاص الذي تخلد عليه عقارب الساعة ـ ستكون مبنية للغد الآتي ، وستكون نيّرة أيضاً بالتحامها الرائع بالنيّر الآخر الذي هو الآن يربو تحت إبطه ـ فعليّ هو الذي سيربط الشواني برباط الزمان ، وسيكون له في المكان قاعدة تحيا بالزمان .

قلت : أن النبيّ اللمّاح رأى ما لم ير ، ولكنه ـ فيما بعد ـ أصبح يُرى هذا الذي قد شقت عنه الحجب . إن أول اللمّاحين المقاصد كان عليّ ـ وفاطمة بالذات كانت تشعر بالحنان المهيج ، وهي تنتقل ـ بين يديه ـ من كف إلى كف ، كأنها اللعبة الراقصة على الزهو والدلال ، وكانت تشعر ، وهي تغرق في عينيه تسبح فيهما على أنوثة فيها عبق مجنون البوح والفوح ـ ولما امتلأت به حباً وفهما وصدقا ، ما قدرت إلّا أن تتبناه ، كأنه وصلة من قلبها ، وفيض من مناغمها ، ولفح في عروقها ، أو توأم لها في الكيان ـ ولما دقت ساعته الأخيرة وانخسفت ثوانيها عن النبض ، جُنّت بأحزانها ، وغرقت في حسراتٍ من الدمع لم تمهلها أكثر من بضعة شهور . . . ولما أدركت أنها أضحت في حالة التلاشي طفت على ثغرها بسمات ناعمات ، لأنها أصبحت جاهزة للقاء أبيها .

في الساعة التي انتقلت بها فاطمة إلى جلال السكون ، كان الحسن والحسين ـ وهما في الثامنة والسادسة من العمر ـ يلمسان لمساً حزيناً ثوب أمهما المسجّاة في فراشها ، وهما يشعران بحفيف هابط إليهما حول السرير : أنتما

ريحانتي ـ وأنتما سيدا أهل الجنّة ـ وأنتما إمامان ، قمتما أم قعدتما ، وأنتما ميراثي ، ومن أهل البيت المطهر تطهيرا .

عمر بن الخطاب

وأنت ، يا أمير المؤمنين ، كنت ـ ليس فقط من أبلغ اللمّاحين ، بل ـ من أخطر اللمّاحين ، ولكن ـ اسمح لي يا سيدي أن ألمح أيضاً : أنك لم تبنِ ، من لمحك ، تقاك ، أكثر مما بنيت منه دهاك ـ والخطر الخطر لم يكن من فيض تقاك ، بل كان من فرط دهاك ! تلك ملمة لم تقع فيها أنت وحدك بالذات، بل العصر كله آنذاك ـ وبئس ما كان لها من التعدية إلى العصور الآتية من عصور الإسلام ! .

مهما يكن من أمر ، فأنت العظيم بما أفاض عليك الإسلام من الورع والتقى ، وكلها قيم فيك وشمتك وشماً على الصفحات المجيدة من تاريخ الإسلام ، وأحصتك من بين الصحابيين الأولين ، والمهاجرين الثابتين في الأمانة لحقيقة الرسالة التي تم لك بها اعتناق والتحام، وتمّ بها ومنها إقرار لك بأنك الحريص عليها ، والصائن لها ، وبأنك تستحق فيها مركز الخلافة .

أيكون هذا جزاء على كل ما لمحت من حقيقة الإسلام، وعظمة الإسلام، وروعة التوحيد في الإسلام ؟ ولكن لمحك هذا ـ وهو العظيم الأجل ـ لم يسم مثله لمحك الثاني . أجل يا سيدي ، وأنك لمحت نية الرسول الكريم ، وهي يغرف الشوق غرفاً إلى ابنته فاطمة ، وكيف ينظر إليها بالمنظار البعيد ، وكيف يغلفها بهذا الجمال ، وبهذه القدسيّة ، وبهذه الروعة المسحوبة من العمق ، ومن الجلال .

من المؤكّد أنك لمحت وفهمت وأدركت أن النبيّ الكريم لم يعطف على أهل بيته أكثر مما يعطف على أبناء أمته ، وإن ذريته ليست فقط محصورة بعلي والحسن والحسين، بل أن الأمة جمعاء هي ذريته التي تدوم له في حقيقة خط البقاء وإن الرسالة ـ وحدها ـ هي الباقية ، والواقية ، والحريصة في الحياة . أما

أن تكون الوصية في أهل بيته ، بأن منهم المستخلفين ، فذلك معناه ، إن العناية هي التي أنعمت عليه بالتخصيص، وأن الرسالة تستحق الإعداد النفسي المتين ، وإن الأقربين منه هم الذين يمكن الإعداد منهم وفيهم ، فهم تحت العين ، وتحت اليد التي تستقيم منها الإشارة ، وفي حنوة الصدر الذي يخفق فيه القلب ، وأمام كل المشاهدة التي يتم فيها الإستغراق المدرج أمام بسطات العقل ، والروح، والخيال ، وإنهم ـ بلا شك ـ هم المتأثرون ، وهو وحده المؤثر ، وإنه هو المريد ، والمشترع ، وباذل الذات ، وإنه وحده المخطط ، والمنفذ ، والصادق في بعد النظر وحقيقة المرمى . لهذا كله كان منه لفاطمة شوق مفطوم ، وأجل ما فيه ، قصد محتاط بأن لا يوقع المجتمع الجديد في تقسيم يفتته من بعده ، دون أن يلحمه أيّ انتخاب للخلافة يعرض على جماهير لم ينضجوا بعد ـ فكما أنه هو الذي قدم الرسالة ، فإنه أيضاً هو الذي يصطفي قيّماً عليها تعهدها ، ويرسخ خطاها إلى أن يأتي الترسيخ بيوم آخر يصح فيه انتقاءٌ واعٍ وانتخابٌ راشد .

أما الأمل الكبير، بأنه سيطاع، فلأن الذين حوله، هم الذين ساعدوه وأحبوه ، وهم الذين به يؤمنون ، وبهديه يأتمون ، وقرآنه يقرأون ، وباسمه يجتمعون .

إلّا أن الوصية وحدها ـ يا سيدي ـ ما نفّذت ـ كأنّك ما سمعت وما لمحت . وعلي ، الموصى له بالخلافة ـ كان رفيقك ، وكنت تراه مجللاً بالجهاد ـ وفاطمة الزهراء ـ كنت تراها غارقة في عيني أبيها ، كأنها قلبه في مقلتيه ـ والحسن والحسين ، كنت تراهما يدرجان في المسجد ، ويعتليان ظهر النبي ، وهو يخطب في الناس ، ليصبح الحسن كأنه مئذنة فوق كتفيه .

لماذا أنا الآن ألمح أن الذي استتر فيك هو الذي به تصرفت ـ والمستتر فيك هو الموروث القديم ، وإنك انت هو الذي نبذته إذ بعثت إنساناً جديداً . ليست الرسالة اليوم ترفض أن تجتمع في البيت الواحد نبوة وخلافة ـ فعلام ينسب إليك القول : « لا تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد » ـ قلت ذلك عشية إغماضة

عين الرسول . وكأن إجتماع السقيفة ، سقيفة بني ساعدة ، وكان فيه إبعادك علياً عن الخلافة ، وتعيينك أبا بكر لها ـ وكنت أنت في تلك اللحظة محسوباً لها ، لأنك كنت الوجيه المقتدر ـ ولكنك أنت الذي قدمت الصدّيق عليك ، حتى يتحمل هو بداية رشق السهام . . .

لست أدري ما الفرق بين النبوة والخلافة ، أتكونان مركزين وكرسيين ؟ أم إنهما مركز واحد لتحصين الرسالة؟ فأيّة قسمة هي الآن بين بني هاشم وبني قريش ؟ ولكنك بهذا الوحي المستتر تصرفت ، وما تمعّنت ، حتى عادت إليك الخلافة بوصية من أبي بكر بالذات ، وهو على فراش الموت ، فقبلت الوصية التي لم تقبلها أنت من النبي بالذات ، لعليّ بالذات ـ

حتى الخلافة ـ سيدي ـ وأنت تخلف بها الرسول الذي أحببت ، وبه آمنت ـ قد أبدلت لها الإسم بالإمارة ، وابتداءً من عهدك ، صار « الخليفة » أميراً للمؤمنين ـ أقول : أيكون ذلك منك ، لأن النبي المخلوف ينتمي إلى الطالبيين الهاشميين ؟ .

لا أقبل أن يكون في الكلام تجريح لك يا سيدي ، كما وأني لا أحب أن يكون كله دفاعاً عن عليّ ، فأنت بالذات أحببت علياً بقدر ما أجللته ، ولسوف تستيقظ فيك شهامة مرسومة فيك ومرشوقة بالنبل ، عندما نحاك عن الجهاد والكفاح اللذين أنت لهما في الميزان ، ذلك الوغد ابو لؤلؤة بضربة من خنجر أسود ، فلم تر أنت أن تترك الأمة تتعثر بالتفتيش عمّن يستلم كرسي إمارتك ، لأنك ـ في تلك الساعة بالذات ـ أدركت أن جمهرة القبائل لم يتسنّ لها بعدُ أن تستشير وعيها في تعيين المتمكن من قيادتها ، فتداركتها بلجنة سداسية تنتقي واحداً من اثنين : إما علياً ، وإما عثمان ، وإن يكن قد انزلق عنك تلميح مغموز به عن الأول إلى الثاني ، وهذه ـ أيضاً ـ أموية سفيانية حسبت عليك في المجال المستتر الذي ما كنت قد انتصرت تماماً عليه .

ما عدا ذلك ـ فعمر بن الخطاب الذي ترك الكرسي لعثمان بن عفان وهو

أمير للمؤمنين ، قد عبأ العشر سنين من عمره بما وصف بالأعمال الجليلة : لقد وصل الجزيرة ، أطرافها بأطرافها ، وربط بالعروبة كل ما وصلت إليه العروبة ، وعززها بفتح الشام ، والعراق ، وبيت المقدس ، والمدائن ، ومصر ، وبرقة ـ ولقد أنشأ الدواوين ، وبنى الكوفة ، والبصرة ، والفسطاط ، والمسجد الحرام في مكة . . .

إن الأعمال الجليلة أو التي وصفت بالجلال ـ إنما هي لتشهد عليه بالشخصية المنفصمة ـ نال الإسلام شطراً منها فاصطبخ بهذا التقى ، وكانت الإستقامة مما لفحته به الرسالة الجديدة ، وكان ميله إلى خطوط العدل رشحاً لذيذاً منها ـ ونالت القبلية المتأصلة في فكره وروحه ودمه ، كل الشطر الآخر منها . فما استترت مقاصده ، ولا صفا العدل بين يديه في التصرف ، فجاءت عروبته قديمة التأدية في التعبير وراحت ترجّح في مقاعد السلطة والنفوذ ، سلطان زعامة على زعامة في « أرستقراطية » شوهت قديماً صفحة العروبة إذ حصرتها في بداوة مقفلة عن أي انفتاح شريف الإطلالة وعريض الجبين ، وما جاءت الرسالة الكبيرة إلّا لتجعل هذا الانفتاح كريم الراية في تعبير إنساني يشهد أن للعروبة وجهاً قديم الحضور في الساحات العريضة ، وهو إنما كان حضوراً بناء في وجود المجتمعات وجوداً إنسانياً محققاً حضارات زها بها صدر العالم القديم ـ إنها حضارة وجودية في عروبة الأكاديين والبابليين والأشوريين والأراميين والأموريين والكلدانيين والكنعانيين والفينيقيين الأبجديين ـ وكانت عروبتهم ـ جميعاً ـ عروبة رسالية منفتحة الحضارة ، كما جاءت في هذا اليوم بالذات رسالة الإسلام العربية الانتماء ، لتكون توحيداً ، ولتكون نوراً وهداية ما قدرت أن تنتسب إليها العروبة الباقية في أمراضها القبلية ، بينما نشرتها العروبة الصحيحة والسليمة هداية للأمم ، وراحت تجمعهم تحت رايتها مجتمعات إنسانية تنضج رويداً رويدا بصحة العقيدة ونقاوة الإسلام .

إني أشك كثيراً بعروبة عمر بن الخطاب ، إنها ليست هي العروبة التي أحيا وجودها نبي الإسلام ، وبثها انفتاحاً على العالم وعلى أمم الأرض ، وبثها وعداً كريماً يحرز التباهي والإفتخار ، بما ضمنها من حب وانفتاح وسماح ـ إن

العروبة هذه ، هي شوق الإنسان إلى الإستزادة الدائمة من خزانات الخير ، يتصل بها الإنسان بالإنسان في الحقول التي تجمع بها مجتمعات الإنسان وحدتها ، وطمأنينتها ، واستقرارها ، وكل مثلها المناقبية الحافظة لها الصدر والوجه والجبين .

لو أن ابن الخطاب هكذا تثقف ، لكانت له الوصلة العريضة المندمجة بالإمام علي ، ولكان قلده ساحة الإسلام بدلاً من أن يعزله إلى الزاوية ويغلفه بالإنفراد لقد قدر على ذلك لأن عروبته المريضة بقبلياتها هي التي كانت تملك الساحة وتسلمه الزمام .

فوق كل ذلك ـ كان عمر بن الخطاب الداهية الذي لم يشتهر له دهاء ـ أظنه هو الذي علم عمرا بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، كيف يكون الدهاء ، وعلم معاوية بن أبي سفيان كيف يغير معالم الخطوط قبل أن يسير عليها ، وكيف ينقل التخوم والحدود للأشياء تاركاً دونها غباراً يشير إلى سواها .

سيكون عمر الحسن عشرين حولاً عند انتقال الحكم إلى عثمان ، ولقد تمكن من مراقبة ابن الخطاب كيف أوصل الحكم ـ بلباقة مكتومة ـ إلى الخط السفياني حارماً منه الخط الهاشمي ، وسيبقى له أيضاً برج المراقبة مفتوحاً على عهد عثمان الذي لم يزه أبداً قميصه .

نبذة في الواقع

لقد كانت القبائل في المبتدأ تنقسم إلى خطين كبيرين : العدنانية وما يلتف إليها من مضر وربيعة ، والقحطانية وما ينتسب إليها من كهلان وحمير ـ وكانت البطون والأفخاذ مشتدة الأواصر بقريش وخزاعة وبني تميم . . . . . وشيبان وبكر وبني وائل . . . وغسان والأزد والخزرج . . . وكلب وتنوخ وقضاعة . إن الحبل طويل لو يطلب الموضوع عرضه . إن هذا الحبل الطويل من القبائل ، ما كان ينجدل لعمران الأرض ، بل كانت تقطعه الفوضى وعدم تنظيم أسباب العيش ، لتتلهى القبائل كلها بتحصيل عيش لم يكن

ليستقيم أوده من دون الاستعانة بالغزو والتعدي ، وكان الكل ـ تقريباً ـ سواء بسواء . لقد كانت الهجرات الطويلة والمستمرة والقديمة العهود ـ وحدها ـ منجاة من هوان يتذمر منه وجود الإنسان . من هنا كان التصاق كل فرد بقبيلته صوناً له ، يأتيه من تضافر القوى للوقوف بوجه أي تعد يأتيه من قبيلة ثانية تفتش مثله عن تأمين العيش الذي يشح على الجميع . كان للقبيلة الكثيرة العدد ذلك الحظ الأوفر بالغلبة ، وتثبيت المكانة ، والحصول على الزعامة . . . قريش ـ مثلاً ـ وهي فخذ من مضر وبطن من عدنان ، كانت سيدة مكة بالنسبة إلى عدد فروعها ، ومنهم بنو طالب الهاشميون وبنو حرب الأمويون .

ولكن ـ لا العدنانية ولا القحطانية ، بكونهما جامعتين لمختلف أعداد القبائل والبطون والأفخاذ ، كان لهما أن تحولا دون وقوع صراع مرير ضمن فخذ واحد من أفخاذها ، وهذا ما كان يحصل في قريش بين الهاشميين الطالبيين والسفيانيين الأمويين ، أو بالاختصار بين الهاشميين والأمويين .

تلك كانت حالة الإنسان في الجزيرة ، لما جاء محمد بن عبد الله الطالبي ـ الهاشمي ـ القرشي ـ المضري ـ العدناني ، وبسط على الجزيرة ظل الرسالة المحمدية التوحيدية ، بحيث لم يعد هنالك لا قحطانية أو عدنانية ، ولا مضرية أو كهلانية ، ولا هاشمية أو أموية ـ بل وحدة إنسانية منظمة على أسس من مثل تجمع في الحق والمعروف والعدل والمساواة ـ لقد أصبح الفرد إمكانية إنسانية تدافع عنه الأمة المنتمي إليها ، لا القبيلة المفككة والمشرذمة بعدم التنظيم . إن الإنتماء إلى واحد هو بدون شك وبلا أي جدال ـ غير الإنتماء إلى ألف قبيلة يوزعها التناحر في ألف مجال .

لقد صح كل ذلك ، ولقد تحقق على الأرض ، وأصبحت القبيلة إسماً للإنتماء به إلى الأمة ، لا مرجعاً للإنطواء به إلى التفرد . لقد كان الجهد منصباً على تجريد القبيلة من معناها القديم ، ومن مفعولها الرجعي البائس ، لتكون النتائج خروجاً حضارياً تعززه النظرة الواعية في تكوين الجماعة ولمّها في الشمل المتين . لقد انتهت الرسالة إلى الحيز الجميل ، وكانت الخطط كلها مرسومة

لمتابعة المناهج في حقول الإتمام والملاحقة ، ورصف الحجارة في البناء .

ولكن الذي حصل عند إغماضة عين الرسول ، لم يكن بالحسبان . لقد كان التصرف بلا روية ، وكان الإسراع بإعلان أبي بكر الصديق خليفة للرسول نذيراً بتقسيم الصف الواحد ، وإعادة القبلية إلى حقولها العتيقة ـ وفعلاً قد انقسم الصف بين فئة تؤمن بالتخصيص والتعيين في أمور الخلافة ، وفئة ترفض التخصيص والتعيين ، وتسرع ـ مغتنمة فرصتها ـ إلى تعيين خليفة يتستر بشرعية الإنتخاب ، على أن تأتي فتسنده المبايعات التي تتألب لها مجموعات القبائل . ستظهر النتائج وخيمة مع مرور الوقت ، ستحتاج كل فئة إلى حشد طاقاتها المساندة في الميدان : سفيانيون أمويون من جهة ، ومن ينتمي إليهم من لفيف القبائل ، وطالبيون هاشميون من جهة ثانية ، ومن ينتمي إليهم أيضاً من مناصرين . . . كلهم ستلفهم الساحات في صراع يلهي الأمة جمعاء عن سيرها المحقق والمجلي .

ماذا يفيد تفنيد الأخطاء غير أخذ العبر منها تحرزاً من الوقوع بمثلها ـ وها إننا نتساءل : لماذا اعتنق الإسلام أبو سفيان وإبناه يزيد ومعاوية ، وطلحة والزبير وسعد بن عبادة وابن عمه بشير بن سعد الخزرجيان ، وعويم بن ساعدة ومعمر بن عدي الأوسيان طالما أن كل واحد منهم لا يريد أن يفقه معنى الإسلام ؟ .

لست أدري الآن ـ بعد مضي عقد وثلث العقد على اجتماع السقيفة ـ كيف اختلط هكذا الحابل بالنابل ، وكيف عادت تنتعش القبائل والبطون والأفخاذ ، وراحت من جديد تبني مواقفها ، وتنتقل بالمناصرة من ساحة يشح فيها الفيء ، إلى ساحة أخرى تغزر فيها الغنائم ! .

ولكن ـ لماذا التعجب ؟ طالما إننا نعرف أن إبدال حرف بحرف في كلمة ، أو حذف حرف منها ، يغير من معالمها ، ويقلب إلى عكس مداليلها . فلنجرب ذلك بإبدال ميم بهاء من كلمة « ملاك » ـ أو حذف نون من كلمة « نرجس » . . . وبئس الملاك يستحيل هلاكاً أو شيطاناً رجيماً ـ ويا ضوع

النرجس المطيب ، يستحيل رجساً يذللنا إلى جحيم ؟ .

والرسالة الطرية المطروحة على البساط الكبير ؟ لماذا نحذف حرفاً صغيراً من حروف مناهجها ، طالما أننا قدّسناها ، وقدّسنا ناهجها ، واجتمعنا بها ولها . إن إتمام لمحة صغيرة لمح بها الرسول الكريم ، كان كافياً لحفظ الكلمة الكبيرة المؤلفة من وحدة الصف، ووحدة القبائل، ووحدة الأمّة ورصّها في صفّها العريض ، وما كانت الطاعة لتضير وهي فعل إيمان بالرسول ، وبصدق ما يقول ، وهي ـ بحد ذاتها ـ نبل وشهامة ، وحب مشبع بنسيان الأحقاد ، وجمع لكلمة تستقيم حروفها في حضن جامعها الحريص على إتمام معناها .

ولكن الحرف الصغير هذا قد أسقط من الكلمة ، لا بل نقل من تدرجه في تأليف الكلمة ـ لقد كانت « الياء » بعد « الباء » فأزيحت إلى ما بعد « اللام » في كلمة « قبيلة » فرجعت إلى معناها القديم ـ قبلية ـ وهي الداء ، وهي الوباء . . . فالقبيلة هي أساس تأليف الإجتماع الذي يجمع قبيلة إلى قبيلة في خط النمو والبناء ـ أما القبلية فهي استدعاء القبيلة إلى تعصّب وصراع ضد قبيلة ثانية مزاحمة لها في الجوار .

لقد قرر ابن الخطاب نقل حرف من الكلمة . . . وابتدأ التحضير لبني أمية ضد بني هاشم ، وكيف يكون التحضير بغير استدعاء القبائل وأيقاظها من نومتها ، ورصّها لدعم الصف ؟ أين هم بنو قيس ، وبنو أسد ، وبنو تميم ، وبنو بكر ، وبنو تغلب ، وبنو تيم الله ؟ أين هم الأوسيون والخزاعيون ، والخزرجيون ؟ فليتفرّقوا ، وليختلطوا من جديد ولينطلقوا إلى فتح مبين ـ إن الساحة اليوم مقسومة أمام كل اللاعبين ـ والخلافة الآن حلم اللاعبين . لماذا يكون لها أبو بكر ولا يكون لها طلحة أو الزبير ـ وكيف يحق لسعد بن عبادة أن يزاحم عليها أبا بكر ؟ فليبطش ـ إذاً ـ خالد بن الوليد بسعد بن عبادة حتى تنطفىء نار المزاحمة .

وكانت أخيراً لأبي بكر ، بمعونةٍ حتى من زعماء الأنصار الأوسيين والخزرجيين ، شأن أسيد بن خضير ، وعويم بن ساعدة ، ومعن بن عدي .

هكذا رجعت تنتعش القبلية ، وعادت تبني المخططات للإستعانة بها مخلوطة أوراقها ، وذلك صبيحة انتقال الحكم إلى عثمان بن عفان .

عثمان بن عفان

- ١ -

لقد ثلّث عثمان بن عفان الإثنين اللذين سبقاه ، دون أن يكون لعلي في ما بينهم أكثر من تعلّة . لقد تم لهم - بنجاح - إفراده وإبعاده . إنما الخطة قد عولجت ليكون لها هذا المؤدّى . ابتدأت بمحاولة فيها من التصميم بقدر ما فيها من العَجْم والسَبْر والزّوز ، وكان المصمم - كما لمحنا - عمر بن الخطاب ، فرمى إلى الساحة أبا بكر ، وراح يراقب كيف تسير الأحداث في مجراها الجديد ، ويسندها بكل ما هو ناجح فعال .

لقد كانت التقوى تشع من أبي بكر - إنها مسحة حلوة مسح بها النهج ، وهي هالة تمنطقت بها - منذ اللحظة الأولى - رسالة الإسلام . وهذا هو الحصن الذي تحصنت به الخلافة الأولى في المحاولة البكر .

وعاد الدور إلى ابن الخطاب ، بموت الشيخ المسن ، فقبل المتابعة بعد التجربة التي منّعت الخط وركزته ، وراح من جديد يمتن الأساس ، ويفتش له عما يدعمه ويدفعه إلى ثبات . وبنهج مدروس أخذ يعين رجاله المنتخبين لملء المراكز الحساسة في الحكم ، ولم يكن ليتساهل مع أي واحد منهم إذا لم يتحلّ بالتقوى والنظافة والصلاح . ولكن . . . هنالك وفرة كريمة من هؤلاء الرجال المؤهلين والمتحلين بهذا المعدن الكريم . كانوا موجودين بين الطالبيين ، ولم يكن لعمر أن يشدّ إليهم ، إلا نادراً ، في التعيين ، وكان للأمويين ميل بارز .

وانتقل الدور إلى عثمان بن عفان . لقد كان لابن الخطاب فرس تمكنت من بلوغ إلى قصب الرهان وهي تقضم لجامها - أما الفرس التي اعتلاها عثمان ورمى بها إلى الساحة المكشوفة ، فكانت بلا لجام . ماذا قلت ؟ أليس التحديد هذا هو التحديد الذي يشمل سياسة العصر ؟ أليس الوصول إلى عثمان بن

عفان ، هو وصول إلى كشف نوايا ، ما استترت بها اللباقة حيناً ، حتى أتاها حائك أرعن، فنشرها قميصاً ما بلي خيطه حتى اليوم . . . ! لقد كان الوصول إلى عثمان ، وصولاً إلى حد السيف ، بين قبيلة وقبيلة ، أو بين فخذ وفخذ ، أو بين بطن وبطن ، من كل قبائل العرب : من عصر الراشدين ، إلى عصر الأمويين ، إلى عصر العباسيين ، إلى عصر الإنتقاليين إلى الأندلس ، وهلم جرا يميناً وشمالاً ـ من مكة ، إلى يثرب ، إلى اليمن ـ إلى العراق ـ إلى الشام وفلسطين ومصر ـ وكل أرجاء المغرب . لقد كان وصول الحكم إلى عثمان بداية الشرارة التي أحدثت الحريق المريع ، وكانت الأمة جمعاء وقوداً له ! ليتني ما أدركت أنه بهذا التحديد كانت مصيبتنا الكبرى ، وليت عمر بن الخطاب قد اقتنع في تلك اللحظة التاريخية ، إن التخصيص أو التعيين كان خشبة الخلاص للأمة ، ومنجاة للقبائل من تسليمها حبال الشد التي راحت ـ من شد إلى شد ـ تختنق بها .

فلنتبسط قليلاً وبإيجاز ، ولنستعد قراءة الأحداث ونحن نسترق الخطى خلفها ، ليكون لنا لمح كيف تنقلت تلك الأحداث ، منذ اللحظة التي غاب فيها الرسول ، إلى الساعة المأفونة التي اشتعلت فيها الثورة على عثمان ، ولفته قميصاً على صدر الزمان .

- ٢ -

غاب الرسول بعد أن ترك رسالة فعلت فعلها الكبير في إنشاء التوحيد والإسلام ـ جمع القبائل كلها في قبيلة واحدة هي الأمّة ـ ربطها بالأرض وبالتاريخ : الأرض التي هي ركيزة النشوء ، وهي أرض الأمة ، ومرماها الوسيع في التفتيش عن كل أوَدٍ لها فيه سبل العيش ، وفيه كل المضامين في تحقيق التطور والإرتقاء والبلوغ . . . والتاريخ الذي هو مداها الطويل في الزمن ، وفيه إثبات الحق في الوجود ، وفيه حقيقة الإستمرار الموصول بالأرض ، وهو سجلها الوحيد الذي تحيا فيه ، وتأخذ منه الإفادة والعبر .

لقد ترك هذا كله في عهدة قبضة من الرجال حوله ، أفهمهم أنه لم

يتركهم قبل أن أتم لهم ديناً هو لهم في متابعة السير في الصراط المستقيم ، ولقد أوصل إليهم ـ على مدى وجوده القصير بين ظهرانيهم ، بالقدوة ، والإشارات ، والتلميح ـ كيف يمكن أن تساس الأمة التي أيقظها هو من سباتها الطويل ـ كيف يمكن التغلب على كل ما هو مرض وتخلف وجوع وعطش وتشتيت وحرمان ـ لقد لمح لهم كثيراً، قبل أن يغيب، أن الوحدة هي كل العمل، وكل الدين، وكل الإيمان ـ ولمح أن القبلية ، لا القبيلة ـ هي مرض الأمة المزمن ـ ولمح أن الذي يتأهّل لاستلام الإدارة بعده ، هو الذي ينهج بنهج الرسالة التي جمعت القبائل من صراعاتها وضغائنها ، وانتصرت بها في عملية التوحيد ـ ولمح أن تعيين الخلف هو عملية إراحة الأمة من نزول إلى الساحة الكثيرة الغبار ، نتيجة إلْتِمَامِ القبائل فيها إلى مبايعة ـ ولمح كثيراً إلى هذا الخَلَف : بتهذيب أنيق لَمح ، بعطف كبير لمح ، بإشارات بليغة لمح ، بعينيه ويديه لمح ، وأكثر ما به لمح : استعطافه ، وتشوقه ، وتمنيه أن يكون لأهل بيته حب كريم يخصصون به ، فهم عترته وأهله المطيبون .

-٣-

وجاء دور الخليفة الأوّل ـ لقد لاحظنا كيف أنه نبت نبتاً على الساحة، دون أن يستشار المخصص لها ، اكان التخصيص بنص، أم كان باشارات وتلميحات. ولكن المخصص هذا ، والذي هو فعلاً من أهل البيت ، وهو الآن ربّ البيت الذي يدرج فيه فتيان لا يزالان قاصرين ـ ترك منهمكا بعملية غسل الرسول ، بعملية تحضير دفنه ، بمؤاساة نفسه الحزينة ، بمؤاساة زوجته المفجوعة بموت ابيها . . . كل شيء كان يشغله عن مراقبة حدث ، لم يكن له الآن أن يحسبه يحدث ، ولكنه في هذا الوقت الحرج قد حدث ـ في اجتماع السقيفة قد حدث ـ بحضور اشهر الصحابيين واشهر الانصار قد حدث . . . وكانت الامارة مركزاً للتنازع ، وكان البت سَريعاً ، وكان الفرض اسرع ، وكان ابن الخطاب الموجّه الاقدر : من الصحابة الامير ، وللانصار الوزارة ـ وتمت قسمة الحكم ، وتمت التولية ، ولمّا يتمّ الدفن بعد ، وها أن ابا بكر الصديق هو الخليفة .

لماذا كل هذا ؟ إن البداهة التي تلمح ، هي التي تجيب = لأن ابن الخطاب لم يقتنع ابداً بأن الخلافة تأتي بالتعيين أو التخصيص ، بل بالانتخاب - ونسي أنه الآن هو أول من يعين ، ونسي أن مجلس الشورى الذي سيشتق التعيين منه هو الذي - في ما بعد - سيحدثه بالتعيين ، ونسي أن المعين هو المطروح في الساحة للمبايعة ، وأن المبايعة هي التي تحرك القبائل وتجدلها بكل عماءاتها ، وعنعناتها ، وقديمها الذي اهترأت به الساحات - ونسي أن الرسالة التي تحب الجماهير - وهي لهم في كل حال - قد جمعتهم مرة واحدة ولن تستدعيهم الآن إلى اثبات وجود لم يستنر بعد - ونسي أن التعيين أو التخصيص أو أيّ شيء بمبناه - هو حصر المسؤولية بالمسؤول حصراً يرفعه إلى مستوى الرسالة ، ولهذا يجب أن يكون معدّاً تمام الاعداد ، واعداده هذا يكون كفيلاً بنقل الصفات إلى مُعَدٍّ آخر ، يتم به الخط الذي يكون مرسوماً للامامة . لم نسمع أن النبي الكريم فصّل ذلك أو افرد له شروحاً - ولكنه عيّن له الاهمية بقوله لابنيه من علي وفاطمة : «انتما امامان قمتا أم قعدتما» ولقد نسي ابن الخطاب أيضاً هذا التلميح ، ونسي أن المعد الأوّل لتحمل المسؤولية من بعده - بكل اشارة وكل تلميح - إنما هو علي بالذات .

اننا الآن نستعرض قناعة ابن الخطاب ، ولقد نفذ بموجب قناعته ، ولهذا شدد ، وبكل روية وقصد ، على تنحية علي عن الخط ، لقد اسرع - وثبّت أبا بكر في الخلافة - وبحكم الطبع لم يستشر علي .

ثلاث سنوات لم تكتمل ، واحس الخليفة الأوّل بقرب الاجل ، فأوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب - هكذا صارت الخلافة رد جميل لموليه - وقبل الوصية ابن الخطاب - بلا شورى وبلا انتخاب - بوصية صريحة ، اصرح من التعيين . امتد به العمر عشر سنين في كرسي الخلافة ، لقد حقق الجليل فيها ، ولقد كان يشعر في قرارة نفسه أنه نجّى الامة من عبودية التعيين والتخصيص ، ومن حصر الدين والدنيا في بيت واحد ، وهكذا بقيت النبوة لبيت علي دون أن يصل إلى يمينه صولجان . هل كان يدري ابن الخطاب أن الصولجان لم يكن ليطيب في يمينه لو أن النبوة التي خرجت من البيت لم تمسحه بقبس كشف له معالم

الطريق ؟!... لست اظنه جحد ذلك ، ولكن نظرته في التأسيس لم تمثل لحقيقة الواقع - واقع الجزيرة آنذاك - فتصرف كأن المجتمع بين يديه هو المؤهل الرافض ، وهو السيد المستنير ، مع أن النظرة هذه في اسلوب التخصيص لا تستنكف من مريد معين مصقول ، يقوم بالاعباء الجليلة وهو بها بصير .

-٤-

وانتقل الحكم بترجيح توصية ، إلى عثمان بن عفان من عمر بن الخطاب - وها هي المواجهة - لم يتورع ابن عفان - ورث الحكم - صحيح ، كأن الحكم وراثة وصلت إليه . لهذا لم يتورع ، وراح يستبد ، وراح يؤسس ، وراح يدعم الاساس . هل من أمل بعد لأهل البيت في الوصول إلى كرسي حكم هو الآن - عثمان - متربع فيه ؟ فليقض نهائياً على أيِّ أمل - من هذا النوع - يحتل به بنو هاشم عقر الدار . أن الدار وما فيها لبني عبد شمس ، لبني سفيان ، لبني حرب ، لبني أمية . اليس عثمان الآن هو السليل في الركيزة ؟ أية ضغينة في الامس لا يكون لها اليوم ايتار قوس ؟ أنه يرى الآن أن سلفيه في الحكم لم يتصرفا التصرف الكافي بالقضاء المبرم على آمال علي بالوصول ، أما هو - عثمان - فبكل حزم سيتصرف .

حتى الشوارع والازقة سينظفها من اتباع علي ، اكان في مكة ، أم في المدينة ، أم في اليمن ، أم في الكوفة والبصرة ، أم في مصر . أما الشام - بنوع خاص - فستكون ركيزة متينة للإنطلاق والقضاء على كل من تحدثه نفسه بالوقوف بوجه بني امية - هنالك معاوية ، لقد زرعه ابن الخطاب حاكماً على الشام ، أنه هناك - فليرسخ له الكرسي - انه حاكم الشام - فلتوسَّع له الادارة والارض - فلتكن موسعة بالاردن - فليعزل عن فلسطين عبد الرحمن بن علقمة ولتنضم إلى معاوية ولتنسحب حمص من عمير بن سعد الانصاري ، ولتضم أيضاً إلى معاوية - وليغرق معاوية بالحرير والخز والديباج - ألم يصفه عمر - من قبل : بأنه كسرى العرب - وسيكون معاوية ، حقيقةً ، كسرى العرب ، وعلى يديه سيتم القضاء على كل أمل لعلي ، وبه سيورق كل عز لبني أمية - وستأتيه المساندة : من هنا

وهناك ستأتيه المساندات : سيعزل عن الكوفة سعد بن أبي وقاص ، ويولي مكانه وليد بن عقبة ، وستكون الكوفة بستان بني قريش ـ وقريش الآن هي كل بني أمية ـ أما وليد بن عقبة ، فليكن سكيراً ، فليكن خليعاً ـ اليس بمثله يكون التحكم المذل في رقاب الناس ! فليتغذَّ عليٌّ واناس عليٍّ ، من المُثُل التي يباهون بها ، وليكن ـ بالمقابل ـ سواد الكوفة طعمةً لبني حرب . . .

أما عبد الله بن ابي سرح ـ أخوه بالرضاعة ـ والذي هدر دمه النبيّ ، لأنه كذّاب ودجّال ـ فليتولَّ الآن حقول مصر ، مصر البقرة الحلوب حسبما وصفها ـ في ما بعد ـ عمرو بن العاص .

أما رجال علي ـ الناس الطيبون ـ الاتقياء الطاهرون ـ فلعذاب جهنم ، لأي عذاب من عذابات عثمان معرضون ، أنهم الآن المضطهدون . . . أي معنى لأبي ذر الغفاري ؟ فليشرد أبو ذر ، ولينف إلى جحيم الربذة أبو ذر ، وليمت في منفاه أبو ذر . . . ولينف أيضاً عمار بن ياسر ـ اليس ابن ياسر من طينة أبي ذر ؟؟ .

هذا قليل من كثير مما ارتجل عثمان وهو في كرسي الخلافة ، في سبيل توجيه الحكم وحصره في بني أمية . أن معاوية ـ في نظره ـ هو رجل الساعة ، وهو المؤهل الوحيد لاستلام الزعامة ، واستلام الامارة ، واستلام الملك .

ولو أن ثورة قد تولدت ـ فعلا ـ من عنجهية عثمان ، فقضت على عثمان ! إلا أنها وصمة تلوَّثَ بها كاهل خلافة ليس من حقها أن تخطىء وتجني على كل المؤمنين ، كما وأن المغانم التي جناها عثمان ، ومنها غزو اذربيجان ، وارمينيا وطبرستان . وفتح جزيرة قبرص التي هي امتداد الارض على الشاطىء الذي سكنه الجدود الممتدون من الجزيرة ـ بنوكنعان ـ قبرص التي كان يسمع من حمص صياح ديكتها ونباح كلابها .

اقول ـ أن هذه المغانم الثمينة بتوسيع نشاطات الامة ، ولملمة اطرافها بعضها إلى البعض الآخر ، لم تواز خسارة جسيمة حلت ـ وستحل على ابلغ ـ

بالامة ، وتؤخرها عن بلوغ كل مجد عظيم ، لو أن اللحمة الرائعة بقيت لها ، ولم تتفسخ إلى عدة معسكرات تتناحر جميعها تناحراً عقيماً ومبيداً . أن صراعاً أوصل معاوية الأموي إلى كرسي الملك ، زعزع اللحمة وفسخ الأمة بين الشام والعراق والجزيرة ، وتركها اشلاء تتلهى باشلاء ، وصدعها تصديعاً ، وكان لها من كل قبيلة همجية جديدة تضرم النار وتوهجها بكبريت منها وبوحل منها أيضاً يتلازج ثم ينشف إلى سحب من غبار ، وستبقى الحزازات والضغائن تتغذى بمواليدها وفصلانها كما تتغذّى مواليد العناكب بامّاتها . كأنها ـ هذه الامات ـ هي الصيد الجديد الذي وقع في احبولة النسيج ، حتى يدول عصر أموي ويولد عصر عباسي فيشويه ويزدرده اموياً ، ثم يلتوي على ذاته فيلتهمها التهاماً تركياً ـ تتريا ـ مغولياً اصفر ! يا للمسافات تلتهمها ثوانيها القارضة ، ويا للاستعدادات النفسية يغرقها اللاوعي في فوضاها .

اصبحت الآن أيها الحسن ـ وعثمان بن عفان أمام مقاضاة الزمان ـ بعمر يتجاوز الثلاثين . أنه نضجك أيّها السيد الكريم ، وأنه لمحك الذي ستأخذ عنه ـ أَفَلَسْتَ الآن في الساحة المعكورة ؟! سينزل إليها أبوك ـ ايكون لك أن تساند خطواته في تفتيشها عن الطريق ؟! .

غمزة

لست اظنه مات ـ عثمان بن عفان ـ إن شرارة تلقطت بقميصه ، سيكون منها لقاح نار تجعل يباساً كل اخضر ! إن الشرارة الآن قد تناولتها الشام ، لتبني بها ثأراً لعثمان ـ لقد عاش الآن عثمان في الشام ـ أليس معاوية المزروع فيها ، هو المنتظرُ موعداً موقوتاً ومخبؤاً في قميص ؟! .

إنها الساعة الذهبية المعلقة في جدار القبة الحمراء ـ بهذا الهباء ستبقى تدق ثوانيها في تأليف الوقت المرهون والمصبوغ بالدهاء .

إن الحكم هو حلية اللازورد الصافي والشفاف ـ الضارب إلى حمرة الدم المنتوف من مهجة الملك وعرنين المجد ـ وهو فطيرة اللوزينج التي تفترشها مرقوقة

موائد الملوك ، استدراراً للعاب يسيل على الشفاه المدهونة بالقرمز .

قتل عثمان ليعيش طويلاً في بال معاوية بن ابي سفيان بن حرب بن أمية ، من أجل احياء ثأر مدَّرع ببغض للأقربين بني هاشم ـ فلتجتمع القبائل المساندة ، من كل حدب وصوب = ولتوجه كلها ـ لا لتحرير الشام ، وربطها بمداها المُصَدَّد إلى أرض الرافدين ـ بل لشحن الصدور بالاحقاد التي عاشت بها طويلاً ـ قبل محمد ـ قبائل اليمن ، وقبائل الحجاز .

الامام علي ـ المنحى

ـ ١ ـ

العفو منك أيها الامام ، ها هو البحث في موضوع هذا الكتاب ، قد خطا خطوات طويلة حتى الآن ـ وان قلقة ـ وهو يرمي باسمك ، هنا وهناك ، على شح وتقتير ، كأن اسمك هكذا يبنى بالحروف البسيطة المهملة . لا يا سيدي ـ ان اسمك ليحاط بهالة يبهو بها ، وان الوصول إليك هو الوصول إلى لب الموضوع الذي يقرأه الآن قلم يبحث عن حقيقة الصراع في وجود الإنسان . أنت من القطع النادر أيّها السيّد المهيب ، وأنت شوق الله في الانسان ، وشوق الوجود في الانسان ، وشوق الدساتير إلى اختصارها في المثل المعبّاة بقيمة الحياة في وجود الإنسان . فلنأخذ الآن اليك حديثنا وهو يفسرّ ـ بك عنك ـ حقيقة ما لمسته الأجيال فيك من روعة هي لك دائماً في صلابة مجتمع الانسان .

جل ما يهمنا أن نعرف من حدودك أنك ربيت في بيت الرسول الكريم ـ ليس المهم أن نحدد أنه اجتذبك إليه وهو بعمر الخمس والعشرين أو أكثر ، وأنت بعمر الأربع أو أقل ، المهم أنه تناولك إلى حضنه وهو في حالة من التأمل والاستغراق ترفعه إلى مستوى آخر ، عزيز الصنو في وجود الانسان . انه الغواص الكبير في أسرار الكون والوجود ، وهو اللماح الأكبر في استكشاف الطوايا المخبوءة في العين ، وفي الاسارير المتلألئة في وجه الانسان ـ لا شك أنه قرأ السرّ الذي هو فيك ، جوالاً في عينك ، ومحفوراً على لوحة جبينك ،

فامتشقك إليه حساما تحسن جلوته ، ويطيب حدّه ـ لا ليضرب الهامات ، بل ليقيم به حدّاً لأي شعاع يستهيم به الضوء لمحو العتمات . الم تكن مهمة محمّد مبنيّة على استطلاع الأغوار من مخبّآتها المكنونة في ضمير الحق ، والمطويّة في وجود الانسان ؟

والجزيرة ؟ وانسان الجزيرة ؟ وأرضها الممدودة على فدافد وحرات واحقاف ؟ وتاريخها المسحوب من اطراف الزمان ، كأنه شلو من الساعات ، لا تلتحم ثوانيها على تأليف شيء من الزمان وربطه بالمكان ! ألم يكن كل ذلك من همّه في كيفية خلق الانسان الجديد ، تنداح به الجزيرة ـ على فهم وادراك ـ وتلم به شعثها ، وتؤجّج به شوقها ، وتعبّد خطوط السير بين فدفد وفدفد ، أو بين واحة وواحة ، حتى تتم المسيرة على الدروب الموصلة إلى العزّة والمنعة والكرامة .

ما من شك في ذلك ، ليكون انتقاء محمد فتىً يربيه في كنفه ، ملحوظاً فيه القصد الكبير في مساندة اخراج الرسالة التي يستعد الآن لتبليغها . ان الرسالة هذه لتحتاج إلى نيرين ، عزيزين في الصفات ، ومتينين في التركيب النفسيّ الممتاز ، اكثر مما تحتاج إلى أقرباء موصولين برابطة الرحم والدم ـ وان صادف أن الفتى هو مربوط أيضاً بصلة كهذه ، فهو ابن عم . لهذين السببين ، ملتقيين على صدفة ، ثم على التزام ، نشأ الفتى في الحضن الكريم تحت عين زوجة المربي ـ خديجة الطاهرة الذيل ـ مع اخوات أربع درجن في البيت الواحد ، لتكون صغراهن ـ فاطمة ـ رفيقة بالتربية ، ورفيقة بالزواج ، يرتبط بها علي ارتباطاً منخوباً ومقرراً في خدمة الهدف الذي تعينّ ، الآن رسالة . إن فاطمة ، وقد سبق التلميح عنها ، هي التي لفّها اللمح ذاته من حيث قراءة عينها ، وتلمس أسارير تطفو على وجهها ، وجبينها ، وصدغيها ولون أنوثة فيها غائصة في براءة فريدة النوع وشهية النكهة والمذاق . ان فاطمة هذه لم تغرق في بال ابيها لأنها فلذة من كبده ، بل لأنها سر ولادة في كينونته المربوطة بالاشواق ـ إنها النضج في معنى الأمومة المطهرة التي يجب أن تكون رحماً قدسية الانجاب ـ هكذا لمحها أبوها ـ وهكذا تبناها منفردة من بين أخواتها ، لتكون له وحده منجبة لميراث مضموم إلى الجزيرة المشتاقة إلى رسالة لفتها وتلفها في المكان والزمان .

- ٢ -

أتكون هذه كلها حدود علي ؟ إنها حدوده ، ولكن التفسير هو المضفي حدوداً اخرى تفيضه على الحدود الأساس ، وتنتقل به إلى مقاييس تجد حدوداً لها في كل زمان يأتي متزناً بالحق ، ومخفوراً بالصفات والمثل ، وموشوماً بالجمال ، من هنا فلنسأل : هل صدق اللمح ـ لمح النبي ؟ ومتى وكيف بدأ اللمح يصدق ؟

دون أن يعتمد التسلسل في الأحداث يمكن القول : بدأ علي يصدق لمح النبي فيه منذ اللحظة التي كان ينسحب فيها محمد إلى غار حراء ـ كيف كان يراقب الانسحاب ، وكيف كان يتأمله ويفهمه ، وينحني أمام جلال معناه ـ اظنه كان في التاسعة من عمره ـ وبالتدريج ، مع إعلان البعث ، ومع العزم الأكيد على التبليغ ، ومع صعوبة التبليغ ، ومجابهة المبلغين الرافضين . . . كان هو أول الفاهمين ، وأول المدركين والمذعنين ، وأول المبشرين المساعدين ، وأول المتحملين ، والمدافعين والمتلقين صدود المتصدين . . . وكان الهروب إلى المخابىء حول مكة ، وكانت الهجرات إلى الحبشة وإلى يثرب . . . وما ونى يتحمل مثل هذه الضغوط كلها ، بالرفقة الملازمة دون أي انقطاع ، وكان الاندفاع إلى ساحات الصراع ، وكان امتشاق الحسام المسنون الشفرة على مشحذ ، أو المسنون اللسان على عزم ، ومنطق ، وحجة ، وبيان . . . لقد كان لها كلها عزم الفتى ـ ومن معركة إلى معركة ، ومن خندق محفور إلى ساحة مكشوفة ، تمَّ النصرُ ، ثم ابلاغ الرسالة ، وتمت قراءة القرآن ، وكان لها جميعها : بطلاً صنديداً ، ومحققاً مجيداً ، وقارئاً مستجيباً ـ مما جعله شريكاً في التحقيق ، وبليغاً مسلوخ النهج من حقيقة النهج ، بما قدمه ـ بدوره ـ من آيات بينات ، كانت تظهر تباعاً في كلامه الذي انجمع منه فكره في نهج البلاغة .

تلك هي الملامح التي لمحها محمد ، وحقق علي صدقها فيه . . . وما انتهى اللمح ، بل جاءت موصولة به روافد أخرى وسعتها عين النبي ، وجاءت نهجاً مكملاً لمناهجه الموصولة بدفع الرسالة أبداً إلى الامام . فهذا الرجل علي

ـ البليغ النهج ، والصادق السيرة والقصد ، والبعيد العين في الرأي والتبصر ، والملم بأسرار النفس ، ومعاني الوجود ، والخاشع أمام مهابة الخالق ، والمدرك كمال الصفات ، والمبني من صفوة الحق ـ انما هو الانسان الأقرب من ردهات الكمال التي يلزم أن يتدرج إليها الانسان ، وصولاً إلى المرتبة الجليلة التي يجب أن يتأسس عليها وبها مجتمع الانسان . تقديراً من النبي لعلي ، وأثابة له ، قال : أنا مدينة العلم وعليّ بابها ـ علي مني وأنا من علي ـ من أحبّ علياً فقد احبّني ، ومن أبغضه فقد أبغضني ـ اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ـ فاطمة بضعة مني ، أهل بيتي هم المطهرون ـ ابناي هذان هما ولداي ، وهما أمامان قاما أم قعدا .

إن يكن هذا الكلام قد ورد على لسان الرسول ، فما اصدقه بحق علي ، وما أمرأه على قلبه ـ وان لم يكن قد قيل ، فما احق علياً به لأن يخصص له . . . ولقد خصص له ، وحتى وان لم يرد باشارات اللسان ، فبكل آيات المعاني والبيان . . . أي رجل مثل علي ، مثل سيفه ، مثل صدره ، مثل صدقه ، مثل نبله ، مثل حدبه الوسيع ، ومثل نهجه البليغ ، يمكن أن يرث الجهد ، ويمتد بالرسالة التي لم تأت الدهور الطويلة بمثلها في خدمة الانسان ـ هذا الانسان الغافي والفاقد كثيراً من قيمة الانسان ؟!

ـ ٣ ـ

هكذا كانت مصداقية اللمح ، ومن هنا كانت موصولة بهذا اللمح روافد أخرى ، انما هي ـ هذه الروافد ـ القاء مهمة تتميم الرسالة ، ومتابعة الإهتمام بها ـ للقيام على صيانتها ، ودفع استمرارها ـ على الكاهل المتين الذي اكتشف الرسول حقيقته ، منذ أن وقعت عليه عينه الكشافة . ان القاء المهمة على كاهل هذا الفرد ، معناه تسليم هذا الفرد وكالة عامة تنقل إليه جميع الصلاحيات ـ وصلاحية النبي الكريم في الرسالة هي أنه جامعها ، ومسؤول عنها وصاحب السلطتين فيها : السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية . لقد نزل التشريع في القرآن ، أما التنفيذ الذي هو الآن يجريه ، فعليّ هذا الكاهل الجديد أن يجريه

من بعده ، بدعامة يقدمها له هذا التعيين أو التخصيص الناتج من صدق اللمح ، ومن حقيقة التبصر ، وبعد النظر في القضايا المصيرية التي هي من وزن الرسالة التي اصابت في جمع أمة عظيمة هجع بها الدهر هجعة طويلة حتى أفاقت ، ولكن جفنها لا يزال مقطوباً بأثقال النعاس .

إن التعيين هذا هو ـ في الأساس ـ بمعنى تشكيل الحكم وحصره بواحد ، دون الالتجاء ـ فيما بعد ـ إلى عمليات استشارية انتخابية ، تستيقظ فيها القبلية في القبائل التي تتألف منها الجزيرة العربية ، كما وأن حصر الحكم وربطه ـ مسبقاً ـ بواحد ، هو أيضاً خطير الدلائل والنتائج ، فكما أن الحاضر قد ارتبط به ، فان الغد كذلك قد اتصل إليه الربط ـ والمعنى الجليل والخطير في ذلك هو تثبيت نظام مكفوف بالرسالة ، ومن صلب الرسالة ، ومن نهج الرسالة وصوابيتها في الضبط ، من حيث يكون المستنير بها معصوماً ـ ضمناً ـ بها ، وتلك هي الإمامة التي تتصل بها ـ على التوالي ـ كل امامة تنتقل إليها هكذا كل الصفات ، متوارثة في الخط الذي ابتدأ ، ولا ينتهي إلاّ بنضج المجتمع الذي توحده المعرفة ، وتشرق به الصفات .

انها أحلام النبيّ العظيم في تكوين الأمّة العظيمة ، والتبصّر لها بالغد الكبير الذي ستطاله الرسالة بالتحقيق . أن التعيين هذا ، والمنوه عنه ، هو ـ إذا ـ تشكيل الحكم وحصره بالامامة . انه بالاساس ، ديني ـ أي من لون الرسالة ـ ودنيوي ـ أي من لون الاهتمام بأمور الأمة ، وطرق معيشتها ، وتحصيل أرزاقها ـ والدين والدنيا هما في نظام الامامة موحداً الربط ـ فالدين يقدم الايمان معززاً بالمثل التي تبني الاخلاق ، والدنيا هي الحصول على الرغيف ، وكيفية اكله بنظافة العين ، والكف ، والقلب ، والشفة ، واللسان .

ـ ٤ ـ

كل ذلك كان من لمح النبيّ ، ومن تبصر النبيّ ، ومن تأكيده على غد لا بد أن يأتي اذ تتطبق له الأحكام المصيبة والصيرورات الواسعة العين ، والناضجة

الطموح ، والصادقة اللب ـ وكلها مطوية عليها الرسالة ، ولقد مرّت كلها باللمح على عينه .

ومات الرسول ـ فلنقل انه مات ـ ولكن الفكر الأصيل لا يموت ، فهو حيّ في المجتمع ، يتوارثه انسان عن انسان ، أو فلنلون القول : امامة عن امامة ، في توارث الصفات حين تصير فاعلة ، والتي تستمر بها ـ في الرباط مجتمعات الإنسان . مات الرسول ـ اذا ـ وجاء دور تطبيق لمحة من لمحاته ، فيما يختص بالخلافة المربوطة أصلاً وشمولاً بالرسالة .

لم يلمح اجتماع السقيفة كل ما لمحه الرسول ، أو لمّحت اليه كلماته وإشاراته ـ والتجأ إلى تصرف سريع يعطيه حقاً تقليدياً في انتخاب الرئاسة . لقد كان الاجتماع هذا مسوقاً بشعور ضمني ـ لم يفصح عنه إلاّ بيان خفيف الاشارة ـ بأن القبول بخلافة علي هو تكريس الخلافة باهل البيت وحدهم ، وهي من حق جمهور القبائل ، دون قيد أو شرط . فكما أن الرسالة هي للجمهور ، فمن حق الجمهور أن يتصرف بها ، ويعين لها القائد ، من اجماعه عليه ـ هكذا كان لهم الحق المبرر في أن يتصرفوا بابعادها عن دائرة الاحتكار أما أن يدرسوا فلسفة انظمة الحكم ـ أما أن ينظروا إلى الرسالة الجديدة كيف يجب أن يتهيأ لها الحكم الذي يديرها ويرعاها في مجالات الصيانة والتنفيذ ـ فهذا ما لم يرد بتاتاً في التعليل والتنفيذ .

لقد كان للقبيلة نظام ودستور ـ رئيسها هو المتقدم بالسن ـ إنها رئاسة السن ـ والقبائل عديدة في الجزيرة ، والرؤساء كذلك هم عديدون ، وكان نظام القبيلة ـ كأنه ملوكي ـ مستبداً بربط الأفراد بالسيّد الأوّل ربطاً مستعبداً ، وكان المجتمع كله وحدات عديدة لا يلمها التجمهر بقدر ما يفسخها التناحر ، والتباغض ، والتقاتل ـ بحيث يكون الفرد امكانية ضئيلة ، يرمي بها إلى الساحة رمي الحصاة ، تحقيقاً لغزو فيه من التعدّي ما يزيد حقداً على حقد ، وضغينة إلى ضغينة ـ وكلها عوامل تفتيت في المجتمع الذي تبنيه وحدته الواعية والراشدة . ان نظام رئاسة السن قدّم للجزيرة أبا بكر الصديق ، ولم يقدم له

الامام علي ، تلبية للنظام الجديد الذي حلم به الرسول نظام الإمامة ـ فنظام الإمامة ، في حلم النبي ، وفي اقتراحه تقديمه إلى التظهير ـ هو غير النظام الملكي المستبد ، وغير نظام رئاسة السن الذي ترفضه الرسالة ـ انما هو نظام مؤسس على اختيار الصفات الملبيّة للرئاسة الجامعة مصلحة الأمة ـ لقد عيّنت الرسالة الجديدة مصلحة الأمة وكذلك قد اقترحت لها نظاماً جديداً من صلبها ، ومن لحمتها ، ومن معدنها ، على أن تكون الصفات المتوارثة هي لها دائماً في المجال. وبحكم الطبع ـ فان الإمامة تسقط من تلقاء ذاتها ، اذ تخسر ركيزتها من الصفات المخزونة لها في الرسالة ، والتي منها يأتي المدد .

ـ ٥ ـ

أتكون ارادة المجتمع هي التي نحّت عليّاً عن الحكم ؟ ولم تقبل به في مركز القيادة ؟ ولماذا لا نسلم بالحقيقة ، طالما انها حصلت على الأرض ؟ وإن الرسالة أيضاً ـ وقد الغت رئاسة السن ، كنظام بائد ، كان يفرق ، وأبداً لم يجمع ـ أقامت لها رئيساً إلى الأبد ، هو النبي الكريم ، ومشت به إلى الزعامة المقدسة ، وإلى سن الدستور المحفور على لوحة الزمان . ان هذه الرسالة بالذات ، كثيراً ما كان يعصاها المجتمع ، من حين إلى حين ، لأنها لم تفعل فيه بعد ، تمام الفعل ، انها له ـ اذا تفعل ـ وليست له بعدم الفهم ـ من هنا : ان المجتمع هو المقرر ـ وهو القابل ـ وهو الرافض .

الامام علي ـ الخليفة

ـ ١ ـ

لم تصل اليك امامة ، ووصلت اليك خلافة ـ كأنها انتظرتك لتصبح أهلاً لها بالسن ـ يا ابن الستين . . . لقد ذابت دعابتك ، واندغمت الآن بنضج الكهولة ، واستسلمت فيك مهابة العمر خضوعاً أمام سلطات المبايعات ، تأتيك من هنا وهناك ، وهي تطلبك إلى حقيقة الانتداب لتسلُّم أمور المسلمين . هنيئاً

للبصرة ، وهنيئاً للكوفة تستهلان بك بطلاً من أبطال التوحيد ، وقطباً من أقطاب الجهاد ، وسيفاً من السيوف المفلولة التي أصبحت تكتفي بالنصل دلالة على أنه عتيق هو السيف ، ما فُلَّ إلاّ من شدة الثبت في ساحات القراع ، لا من روعة النصر في حلبات الصراع !

يا لها من خلافة وصلت إليك من طرف الميدان ، بعد خمس وعشرين حجّة ، بعد ثلاث محطات مهترئة بالمبايعات لرؤساء السن ، تحت زحمة القبائل المتسابقة إلى اعتلاء ذوات الخفاف ، مجرورين من أطراف الفدافد والأحقاف ، لطرح مبايعات ليس فيها غير رجوع إلى الوراء : من بني أسد ـ رجوعاً ـ إلى بني غيان «كانت قبيلة غيان في الجاهلية ولما اسلمت أبدل الاسم لها النبي الكريم ، فصارت تعرف ببني أسد» ـ ومن عبدالله ـ رجوعاً إلى عبد العزى ـ ومن راشد ـ رجوعاً إلى غوي .

لقد أُعددتْ للامامة أيّها السيّد ، للنظام الجديد الذي اقترحته الرسالة الجديدة ـ لقد بايعتك الرسالة كلها في الإمامة : أكانت ناطقة في غدير خم ، أم معلنة باللمح والاشارات ، لقد بايعتك الرسالة من خلف الفدافد والحرات ، من أبعد منها ـ من قلب الواحات الممتدة من خلف سيناء ، من خلف القدس ، وتلال اريحا ، وسهول بيسان ـ من خلف غوطة الشام ، ومن كل بستان حول بردى ، ومن كل بسطة أرض يرويها هنا دجلة والفرات ، ويرويها هناك نيل مصر ـ من كل أرض وصل إليها من قبل الزمان مد القبائل ، مما مهد اليوم للرسالة أن تمد اليها فعلها وزخمها . لقد أعدّتك الرسالة الجديدة للمهمة الممتازة ، وصولاً اليها ، بفعل الوصاية ، لا بمماحكات المبايعة . . . فكيف عادت ووصلت اليك بهذا الشكل ، هذه الخلافة ؟!

بحكم الطبع ، أنت لم تردها ملوثة بدم عثمان ، ولقد اوجزت ذلك بالوصف في خطبتك «الشقشقية» فلنستمع قليلاً اليك : «وإنّه ليعلمَ أبو بكر ـ أنّ محلّي منها محل القطب من الرحى ، ينحدر عنّي السيل ، ولا يرقى إليّ الطير ، فسدلت دونها ثوباً ، وطويت عنها كشحاً ، وطفقت ارتئي بين أن أصول بيد

جـذاء ، أو أصبر عـلى طخية عميـاء يهرم فيهـا الكبير ، ويشيب فيهـا الصغير ، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقىٰ ربّه ، فرأيت أن الصبر على هاتا احجى ، فصبرت وفي العـين قذي ، وفي الحلق شجى ارى تـراثي نهبـا ، حتى مضى الأول لسبيله فادلىٰ بها إلى فلان بعده (ابن الخطاب) فصبرت عـلى طول المـدّة وشدّة المحنـة ، حتى اذا مضى لسبيله ، جعلهـا في جماعـة زعم اني أحدهم فيـالله وللشورى متى اعترض الريب فيَّ مع الأوّل منهم ، حتى صرت اقرن إلى هذه النظائر !» .

أما إلى ابن عفان ، فقد وجهت القول : «إلى أن انتكث فتله واجهـز عليه عمله ، فـما راعني إلا والناس إلي كعـرف الضبع . . . فلما نهضت بـالأمر نكثت طـائفة «أي أصحـاب الجمل» ومـرقت أخـرى (أي أصحـاب النهـروان) وقسط آخرون (أي جار عليه أصحاب صفين) .

هكـذا وصلت اليك مشقـوقة الثـوب ، مقرَّحـة ، منهوكـة ، مبعثـرة ـ لا كوفتها مكوفة بحقيقة الجهد ، ولا بصرتها مجموعة تحت عين البصيرة ، ولا مكـة فيهـا إلا مفتشة عن كـل ذرة غبار تعيـد بها عجن اصنـامهـا ، ولا يثـرب لهـا ، تصغي إلى الكلمـة تهبط من فوق منبـر المسجد ، ولا دجلة والفـرات إلا ليغسلا الأرض من دم ، بدلاً من أن يكون عـطر الأرض وملحها ، أصبـح زنخاً يمجّـه الذوق ، والأنف ، والعقل ، واللب ، وكل بصيرة في الانسان .

- ٢ -

مـاذا نقول لـك أيها الامـام ، أو فلنـرضـخ معـك للواقـع ونقـول ، أيّهـا الخليفة ؟ لقد الحّت عليك جمهرة من القبائل أن تتسلم الزمام ولـو مدبـوغاً بهـذا العكـر ، ولو مهـزوماً بمبـايعات مـريضـة مـردودة إلى وبـاء ـ قبلت بعـد تـردد ، وتلكؤ ، وطول تصبّر ، وامعان روية ـ ولكنك قبلت ـ لأن القبول هـو فرض من فروض الواقع ـ ان المجتمع هو الذي يفرض ـ مخطئاً يفرض ، ومصيباً يفرض ، واعيـاً يفـرض ـ ومغفـلاً يفـرض . . . ! والمجتمـع هـو ارتبـاط الفـرد فيـه عـلى الصيرورة المشتركة والتي لا مناص من الدخول فيهـا ، والقبول بهـا ، ثم العمل

على تزكيتها أو تصويبها بقدر الامكان . هذا ـ أوّلا وآخراً ـ كل ما حداك على القبول برمي ذاتك ـ ولو بعد لأي إلى الميدان .

لقد كنت المتأفف ، ولكنك نزلت . ولقد كنت المستنكف ، ولكنك أيضاً نزلت ، ولكن نزولك لم يعن أنك قبلت أكثر مما عنى إنّك رحت إلى المحاولة ، محاولة رد الاعتبار إلى المركز الكبير ، بجعله يعود رويداً رويداً إلى مجراه اللامح المسنود بنظافة الإيمان والتقوى ، والعدالة ، والمساواة ، وكلها مزاياك ـ إننا الآن ، واليوم ، وغداً ، نثق بك ، لأنها مزاياك ـ لأن كل آية من آياتك أنت ، في نهج البلاغة ، هي شرح لمزاياك ، وهي ـ ان تكن بليغة ـ فلأن الرسالة هي كل ثقافتها ، فهي ـ بالنسبة إلى القرآن الكريم ـ أبعاض منه ، نقول ذلك انعاشاً لذكرى ذلك الذي أوصى لك بالخلافة في غدير خم ، واغدق عليك رضوان ربه وربك ، ولفّك اليه بأخوّة جمعت كل القبائل ـ فيما بعد ـ بوحدة الاسلام ، ووحدة المجتمع ، ووحدة المصير .

وابتدأت المحاولة برفض كل مساومة تؤخّر الرسالة عن مسيرتها القويمة . فهنالك الشام ـ والشام مهبط لطيف الظل ، وعليل النسمات ، وكريم العطاء في سندس زاهي اللون على ينع الثمار ـ انها مهبط من المهابط المحببة على قلوب الممتدين من أصلاب الجزيرة العربية ، والفائضين عن امكاناتها الاستيعابية ، فاعتمدوا الانسياب متنفساً لهم عبر اجيال واجيال ، لم يحصرها زمان ، من قبل أن يتلقط التاريخ بحرف يضبط التدوين ، ويؤرخ للحوادث أو يفسرها ويعطيها معناها الأصيل ، من قبل أن يأتي مؤخراً الأراميون ـ مثلاً ـ ويشاركوا في عمارة الأرض وبناء المدن ، واعطاء دمشق اسمها الذي تعيش به إلى الآن . ان دمشق هذه ، هذه الشام الكريمة الحدب ، والموصولة المكان بالمكان ، والزمان بالزمان ، هي ملعب جديد يلعب عليه معاوية ـ على هواه ـ لعبة دهياء . لهذا حذفته عن كرسي الامارة ، ودعوته من جديد إلى الانتساب ، إلى ترك بني قيس ، وبني كلب ، وبني غسّان ، يعودون إلى وحدة الصف مع بني كهلان ، وبني الأزد ، وبني لخم ، ليبقى المكان ـ مكان العراق ومكان الشام ـ موصول

الهواء بالهواء والرذاذ بالرذاذ ، والقبيلة بالقبيلة التي سحبت من عمق غفلات الزمان ، لتشارك في بناء المكان ، لا لتعمل على هدر الزمان وجعله رغوة من رغوات التناحر ، يموت بها الحق ، وينهدر الدم ، لنصبغ به قطعة من قماش نتقلدها برفيرا كاذباً نغطي به ابداننا ، وستائر قصورنا ، وكراسينا التي نجلس عليها وبيدنا خاتم الملك الأحمر ، وقصبة الصولجان !

ولكن معاوية ـ والدنيا أصبحت في عينه ، وقميص عثمان في يمينه ، وعطاءات الأرض في خزائنه وفوق موائده ـ لم يعتبر نصحك أيّها الخليفة المجموع من خلف نصف قرن من الاهمال المدروس ، والنسيان المصطنع ، إلا هراء ، وإن الدنيا هي التي تخلق ذاتها ، وتصبغ عينها بلون قلبها وزندها ودهائها ـ ثم دعاك ـ هو معاوية بدوره ـ إلى غسل قدميك قبل أن تمشي إليه ، وعليهما غبار من الصحراء التي انسحبت منها ، وهو غبار لا ينبت خصباً. وكانت صفين حداً فاصلاً بين شوق وشوق ، وبين معراج ومعراج ، وبين توحيد وتوحيد ـ وكانت امتداداً لحرب الجمل ، واشتقاقاً لمعارك النهروان .

ـ ٣ ـ

لم يخطر ببالي أن أبحث عن معنى صفين في تركيبها اللغوي البياني ـ ولكني الآن اتساءل : هل هي مثنّى «صف» ، وجاءت بها سهولة اللفظ بحالة النصب أو الجرّ ؟! يا لذل التفكهة في التعليل ، ويا لتعس الفرات ينقسم دفقه المعطاء إلى جدولين قاحلين بالخصومة المخبوطة بحوامض الدم ، وبرواسب منقولة مع الأجيال ، حملها معهم المتجولون ، مربوطة بالاوتاد وحبال الاطناب !! يا للفرات يضيع مجراه عن حقيقة الورد ، ويتحول ولغا للعطاش !

يا كبدي على الكوفة والبصرة تشويهما معركة جانبية زرعها فنُّ الصراع في الخاصرة ، كأنها خرَّاج اصطناعيّ ينشبه النطاسي البارع في فخذ المريض ليحوِّل أوهام الحمّى إلى المكان الآخر ـ يا لدهاء معاوية وعمرو بن العاص ، يخففان الضغط عن صفين إلى عمق الكوفة والبصرة ، حيث تقاتل عائشة التي هي الآن بنت أبي بكر الصديق لا أم جميع المؤمنين .

إنها معركة الجمل ، جمل عائشة المتعلقة ببني تيم ـ طلحة هو ابن عمها ـ لماذا لا تكون الخلافة لابن عمها ؟ ان انتصار ابن أبي طالب يثبت الخلافة في البيت الهاشمي ، ويوقع أباها ـ الذي ترك الدنيا والخلافة على خط سياسي معينّ ـ في ذل الخيبة وذل الانكسار ـ وها هي القبائل في البصرة تستميت في المناصرة ، وتضرب طوقاً من سيوف مشرعة فوق جمال ونوق متلعة الاعناق ، لصيانة «عسكر» جمل أم المؤمنين ـ يا لنخوة الرجال من بني ضبّة ، والأزد ، وبني ناجية ـ انهم من أبناء العشيرة ، وهل يناصر الأهل إلاّ الأهل ؟ وهي تنادي القبائل إلاّ سحبُ الغبار ؟ وهل تكون المبايعات لغير هذه الاثارة !

لم تنته معركة الجمل بعرقبة «عسكر» وجندلة طلحة والزبير، وأسر عائشة ثم بفك أسارها . ولم يكن معنى ذلك ـ بالمقابل ـ انتصار علي ، وتثبيت قوائم الخلافة لبني طالب ـ ان انتهاء المعركة قد اشار إلى أن الخراج المصطنع قد أدّى مهمته المزدوجة : حذفه ـ أولاً ـ رجلين من الساحة يطالبان بخلافة ـ وثانياً انهاك قوى خليفة هو الآن خطر في ساحة الصراع . ان التلهيّ ـ ميدانياً ـ عن صفين ، هو أيضاً توفير فرص لمعاوية في اتمام اعداد جيوشه ، من وحي الساحة ووحي المستجدات ، ويخلق لكم الله ما لا تعلمون .

ثم إن الرجوع جدّياً إلى صفين ، وان راح يميل الكفة إلى مصلحة الخليفة أو يرجحها ، لم يكن إلاّ ليعصر قلبه بالغم ـ فالفرات الذي يتهلل بسقاية الحقول واستنبات الخير منها ـ إنه الآن هو الذي يسقى الحنظل ، لتنتشر حوله ، فوق السهول ، جثث المسلمين الملبين نداء الموت في الخراب والدمار !

وجاء دور رفع المصاحف ـ لم يزل التاريخ حتى الآن يهزأ من تمثيلية عوراء ادخلها الدهاء بلونٍ ، وأخرجها بلون آخر ـ يا للدنيا تأخذك بهاتف الصدق ، وهي مموهة ببريق الخديعة ! ان الاجتماع باذرح ، أو في دومة الجندل ـ سيان تعيين المكان ، أو ابداله بمكان ـ لم يبدل من الجوهر ـ ودل إلى أن الخادع هو الذي يحتال على امتلاك الدنيا ، وان المخدوع هو الذي يحاول رأب الصدع ، أبعاداً عن الناس أهوال الحرب ، وهدر الدماء .

ولكن المحاولة التي بقي الإمام مستمراً بها لم تثمر ـ ما كانت الرسالة التي امتلأت بها المصاحف لتقرأ ! لأن الزيغ لم يتعلم أبداً تهجئة الحروف في الكلمة ، وكانت النتيجة ، بين يدي معاوية : تحضير جبّة حمراء راح يزهو صباغها ، وهي تنهل على كتفيه ـ وفي حروراء تحضير فتنة لقمت العصيان فلسفة العصيان ، راح الامام علي يتلهى بقمعها وتخليص الناس من مخارجها ـ وما كاد يقضي عليها ، ويعود إلى إسماع كلمة أخرى من كلماته، حتى اسكته ـ بضربة سيف ـ ابن ملجم !!!

ـ ٤ ـ

ما أظن الإمام قد سكت . ان الكلمة التي يبست على شفتيه بقيت تنطق ـ ما أيبسها الموت ـ بل أنها زهت به .

ها ان الحسن جاء يقرأها في اذن معاوية ، جاء يأخذها عن شفة أبيه التي لا تزال تفصح : ان الدنيا لا تؤخذ إلّا بالجمال ، وإن الحق هو الذي يبني الناس في المجتمع الصحيح ، وإن الناس هم زينة الدنيا ، فلتزه الدنيا ، وانما هي لتزهو ، فهي جنة الله لعباده ، ولكن بالتقوى فلتزه ، بنعمة الله ونعمة الحياة الكريمة فلتزه ، بمفهوم الرسالة التي تحيا في الضمير الكبير فلتزه ، برفع المصاحف ـ مثلاً ـ وبتحكيمها الصادق فلتزه ، وليكن الصدق ديدنا في البناء ، لا الخديعة ـ فالخديعة هي التمويه الذي يشبه الغبار .

ليت المجتمع قد لبّى مضامين الرسالة ، لكان عليّ اماماً قبل أن يدخل حلبة الخلافة والمبايعات التي طرحته في الساحة مغمض العين ، ولكن ، ناطق الشفتين : بأن الحقيقة لا تموت في مجتمع الانسان ، فهي تعيش به وفيه مع قيام الساعة .

هذا هو مجالك الآن أيّها الخليفة الجديد ـ أيّها الحسن ، أيّها الامام النائم في عيني جدّك العظيم ، والناطق بشفتي أبيك المتمتمتين بنهج البلاغة .

الحسن

- ١ -

أيّها السيّد - هذا هو مجمل المراحل التي قدّمها ومثلها وأخرجها العصر أمامك - لقد رزمت ذاتها كلها بين يديك ، وتحت عينيك : عينيك الناظرتين ، وعينيك المبصرتين - عينيك الرائيتين ، وعينيك المغمضتين على اللمح المكنون في خزائن الظنون - ولقد شاهدتها جميعها تمشي : تارة باقدام مشقوقة من تراب الأرض ورمادها المذري قيحاً في الجفون ، وطوراً بأقدام مخففة ، ليست من ريش اللحم والعظم ، بل من أريج مسحوب من مقل ليس لها في التراب مقام . ولقد رافقتها تدرج امامك في حلبات الزحام ، يلفّها هناك زمام من الحق ، وزمام من الخيال ، وزمام من الروح ، وزمام من الصفاء يطفو في العين فيجعلها قطعة من جنان - بينما يلفّها - هنا - في المقطع الثاني ، تراب مجبول بلعاب الثعابين ، على رباطات من زنانير يموّهها الطمع بالخداع ، والبطولة بالدهاء ، وكلها علامات وهن جاء جدك العظيم ليخلص منها عقدة اللسان .

ما شحّت عليك المراحل أيّها السيّد ، وما شحّت عليك قراءتها : لا في حبو الطفولة طفولتك ، ولا في قفزات الفتوّة فتوّتك ، ولا في مراحل وصولك إلى حقول البلوغ . ولقد شاهدتها - في التمثيل وفي الاخراج - يمتلىء بها العصر عصرك ، عصر النبوّة ، عصر البداية في الطرح الكبير ، عصر الاساس في الانطلاق المركز لجمع أمّة من أمم الأرض ، هي الآن للجمع والتحضير ، لأن تصبح أمّة للاعتداد بها ، وللتباهي . ألا يكون لنا ظفر ونحن نعيد قراءة خطواتك ، وأنت طفل ملفوف بخرقة صفراء ، لم تحبُّ بعد ، إلى أن قفزت عقدك الثالث ، موشّحاً بجلال البلوغ ، ومجلّياً بجلوة معتمرة بجوهر الأحداث المحشورة في العصر ؟ ليست زهيدة في الفترة التي عَجَنْتَ فيها خطواتك ، وعَجَمَتْ هي عودَك - ولقد أصبحت فيها عظيماً ، لأنك ربيت في أحضان العظام ، ورافقت الخلفاء الأوائل ، وشاهدت بام العين كيف يتم اللعب فوق خشبات المسارح ، وكيف تطفو النوايا على بياض العيون وسوادها ، وكيف تحفر

السرائر خطوطها في صفحات الوجه وفوق لوحة الجبين ، وكيف تتم الأحداث فوق ساحات الصراع ، وكيف يلهو بها مجتمع الانسان فتبنيه أو تشقيه ، إلى أن يدرك ما هي حقيقة الصراع .

- ٢ -

قد تكون المرحلة الأولى من بين المراحل التي مرّت أمامك في الانسياق ، هي اغنى المراحل وأعمقها ترسيخاً في ذاتك - انها مرحلة الطفولة . من المنطقيّ انك عشتها جميلة بريئة ، وملونة بالدلال ، ولكنك لم تكن - وانت طفل يلثغ - لتفقه ما تخصص لك فيها ، وما اختفى من معانيها ، وما انطوت عليه المقاصد من تلوينها ، وما هو الذي يشتغل في تنسيقها ودفعها من الخطو الصغير القدمين ، إلى انتعال الساحات العظيمة التي هي شاؤ آخر عزيز الشأن في حقيقة وجود الانسان . . . فيما بعد - أيّها السيّد - بحكم الطبع فيما بعد ، من كل خطوة كنت تنتقل بها - كان يتألف هذا «البعد» - صرت تدرك الأبعاد ، وتتوضح لك المضامين ، وتشرق عليك ابعاد المقاصد .

لقد أدركت بالتدريج أن ولادتك كانت ثمينة ، كانت من صنف آخر ، غير الصنف الذي يأتي - هكذا فقط - عن طريق اتصال رجل بأمرأة ، فتحصل بنوة ، بل عن طريقة اختيار بني في الروح ، وادّاه الشوق مدفوعاً إلى الاخراج - لهذا ادركت أنّ أمّك فاطمة لم تحضّرْ رحماً يتم فيها الاخصاب ، بل حُضِّرَتْ أمّاً تشارك في حقيقة التوليد ، ولا لتكون امّاً لفرد ، بل امّاً لذاتها المتدفقة من ذات أبيها - ستصبح فيما بعد ، امّاً لسلالات يسمو بها الحق ، ويثبتها نبل القصد جداراً من جدرانه المنمّقة بالصواب . لهذا حضنت أمك فاطمة بحنان لوّن لها التربية والتخصيص ، بعد أن اكتشفها جدّك - أبوها - بأنها خميرة ممتازة من خمائر التكوين النفسي - الروحي الأنيق ، وإن فيها من الجمال ما يجذب روحه إلى الانسكاب فيها انسكاباً اندماجياً ، يجد له فيه حقيقة الإرث .

من هذا النوع كان ادراكك لأبيك ، بأنه منخوب لأن يتصل بأمك ، فهو من الخميرة ذاتها التي يطيب بها عجن الطحين - سيكون علي اباك ، وهو

موصول بجدّك ، ينقل منه إلى ذاته صفات أبوّة مدغومة بالتراث المستمر في الحقيقة التي شحذت عليها الرسالة حسامها ، أنه الاهتمام ذاته ببناء رجل يكون أباً لذريّة تأخذ على عاتقها اعباء قيادة أمّة مجموعة من فيض حق غرقت فيه الرسالة . ان الرسالة الآن هي الجامعة صفات الأبوة ، وصفات الأمومة ، منقولة غرساً في الأبناء الموصولين بها بالتوجيه المتوارث . . .

من هنا كان ادراكك بأنك وريث قبل أن تولد ، بأنك معد قبل أن أبصرت عيناك هذا القبس ، بأن بناءك يصدق وتتعيّن المسؤولية فيه ، لأن التربية هي المعدودة لاثبات الصدق ، فهي منه خصب ، ودفع ، وتلبية أمانة ، ومن هنا كان دلعك على جدّك ـ وأنت تلعب حتى في باحة المسجد ـ قبولاً واقراراً ، بأنك أنت ابن الشوق الأصيل ، وأن اهتمامه بطفولتك الندية ، هو تجسيم لأحلامه البكر في تبصّره بأمور الصيرورة ـ حتى الخرقة الصفراء التي رماها عن جسمك الطري ـ وأنت ابن يوم ـ توصلت أنت واكتشفت أن الرمز فيها هو تخليصك من أيّ لون يقصفك به الكبريت ـ أن الأكباد المشحونة بالضغائن ، هي التي تخطف اللون من الوجوه ، وتكسوها بصفار الموت ـ حتى لون القماش يلفون به جسدك ، لم يرده إلاّ نظيفاً من لونه الأصفر . هذه هي مرحلة طفولتك ، وهي تلقي عليك أثقال الروابط ، وهي تحضّرك للاتصال بكل غد يحقق لك جلوة تستنبتها من حقيقة مهماتك .

ـ ٣ ـ

أوّل صدمة هزّت كيانك وأنت في اطلاتك الأولى على سن التمييز ، كانت اغماضة عين جدك في غفوة صامتة الهدب ، ورهيبة السكون . لم تكن انت لتحسب أن عين جدّك ـ هكذا ـ يعتريها مثل هذا الانطفاء ، ولكنك أدركت هولاً قرأته في عين أمك المذبوحة بالدمعة الحمراء وتحسست ثقلاً رزح تحته أبوك وهو يلملم نفسه من ترنح يكاد يفقده الصواب ! لقد فتحت الصدمة هذه اخدوداً في كيانك النفسي ، عمقت فيه التجليات ـ وان غارقة الآن في المبهمات ـ إلاّ أنها ستطل بك ، مع امتدادات الأوان ، على استكشاف الحقائق في

الوجود ، وربط الموت بالحياة التي يبقى لها في المجتمع كل الاستمرار .

لقد أخذت كل ذلك باحساس ضمني ، وإن يكن إحساساً طفلاً ، إلاّ أنك تناولته من رهبة الموت ، ورحت تفتش عن جدّك الذي غاب ، لتجده متفجراً في عين أمك ، ولتجده حيّاً في صدر أبيك المزروع في حقيقته الغائضة بروح الرسالة . انه شعورك الضمني المعبّر عنه بالصمت والحزن والهدوء ، وهو من البدايات التي راحت تسير بك إلى كل جلوة تستنير بها في طريقك الآتي . يكفيك منها الآن ، أنك شعرت بهلع المصيبة ، وأنك جمعت على صدرك الصغير حسابها عميق الحفر، وأنك ـ بالتالي ـ ملجوج اليها بالادراك : ان جدّك الذي غاب ، هو الآن حاضر بأبيك وأمّك ، وشديد الحضور بك وبأخيك . أليس الموت الآن هو الذي يمتن هذا الرباط ، ويلحمه لحماً بنياط الحياة ؟

وهناك شيء آخر قد حدث أمامك ـ أنه أيضاً من نوع الفجيعة ، أو أنه جاء صباغاً تلونت به فجيعة الموت بما جعلها أشد رزءاً ، وأثقل حملاً في عملية التصبّر عليها ، والتصدي لها بالتأسيّ : انه الاسراع بعملية تعيين الخليفة في اجتماع سقيفة بني ساعدة ، قبل انتهاء تغييب الجثمان ، ولفّه بحرمة الوداع ـ لقد قرأت أيضاً في عين أبيك ، ذلا طاله بطعنة في قلبه ، وفكره ، ومكانته ، وكذلك فانك لم تدرك إلاّ بحسّك الضمني ، إن الخلافة هي تأكيد لأبيك ، فما دخل الغير فيها ؟ الجد هو جدّك ، والنبيّ هو أبو أمّك ، وأبو أبيك ، وأبوك بلا جدل وبلا أي نزاع . . . فما بال الناس يأكلون الثمرة ويقطعون الشجرة ! ما بالهم يأخذون الرسالة وينبذون أصحابها الفاعلين ! ما بالهم يتسابقون إلى المائدة ويطردون عنها الذين بسطوها ومدّوها ولوّنوها بالطعام ! ما بالهم يتزاحمون إلى البئر يرتوون منها ويطمرونها بالذين حفروها وأغرقوها بالعذب الزلال !!

هذا ما رأيته بحسّك الضمني أيّها الحسن ، في هذه الساعة المطلة بك على جدث جدّك الذي لم يتوار بعد ـ ولكنك ـ فيما بعد ـ سترى الحقيقة الكبيرة ، بأن الرسالة التي تفوّه بها جدّك العظيم ، انما هي للمجتمع العظيم ، انها له ، تؤسسه حتى يصير عظيماً . . . أما الآن ، في هذه اللحظة الحاضرة ، فان

المجتمع هذا لم يبلغ بعد الساعة الثمينة ، لهذا اعتبر المجتمعون في دار السقيفة ، ان الرسالة هي للمجتمع الذي يتصرف بها الآن على هواه ـ ستدرك فيما بعد ، أن الرسالة ـ حقّاً ـ هي للمجتمع ، وأن الوصاية لأبيك في القيمومة عليها ، هي من باب الحرص على تعهدها وهي طرية العود ، من أن تتناولها الأهواء والأنواء فتلويها عن سواء السبيل ـ إنه النظام الجديد أيّها السيّد ، انه تدارك من وقوع في اخطاء ادارة . . . من حقّك أن تشعر أن أباك قد هضم حقّه في الولاية ، ولكن واقع المجتمع قد فرض ذلك ـ وسترى أن أباك هو الراضخ الأوّل لما هو مفروض ، وستجد نفسك أنت أيضاً مسوقاً إلى القبول وأنت تخدم رسالة هي لك وللجميع ، دون أن تنسى أن مهمتها الجليلة لن تكون إلّا بناء المجتمع الذي هو الأمة العظيمة التي تستحق جليل العطاء ، لأنه منها هذا العطاء .

ـ ٤ ـ

كنت تقفز عشراً من عمرك ، عندما خلت عن أبي بكر سنوه ـ جئت منسلاً خلف أبيك لالقاء نظرة أخيرة على الجثمان المسجّى . بقي أبوك غارقاً في مداه وهو واقف كأنّه قطعة من هزيع الليل ، أما أنت ، فانك لبست زاوية من حنايا المكان ، ورحت متأملاً ـ أما عمر بن الخطاب الذي انتقلت إليه الخلافة بوصاية خلعها عليه الرجل النائم الآن على عتبة الصمت ، فانه لم يتورع عن تثبيت عينيه عليك ـ لا ليخفف ما بنفسك ـ بل ليغسل به نية عاشت في خلية نفسه ، وهو الآن يتأثّم بها ! لقد أصبح الآن خليفة المسلمين ، لا أبوك علي أيها الفتى الذي ظل متفكراً يستعيد ذكريات جده ـ هكذا ـ قد اندمج في حلبة الصمت ، وهو يتمثل أيضاً أمه المبتسمة فوق فراشها الأبيض ، بعد أن خسرت أباها ، وميراثها في أرض فدك ، وشجرة أراك كانت تقيها من حرارة الشمس ، وكرسيا للخلافة وقف لذريتها في حقيقة التمثيل لقضايا المسلمين .

لقد أخذت كل ذلك بحسك الضمني ـ في تلك اللحظة ـ وأنت تتأمل نقل المشاهد فوق خشبة المسرح : من أبي بكر إلى ابن الخطاب ، دون أن تطرف

عين نحو أبيك الذي هو في نظرك أرجح من كل من هو في المكان .

لم تلحظ عند أبيك حقداً على عمر ، ورحت فقط تستشعر عنده عتباً على الرجل الذي لم يلب نداء الأشواق عند جدك الرسول ، من هنا كان أبوك يلبي الخليفة المستشير ، بتقديم النصح ، وابداء الرأي ، والمشاركة في حل المعضلات ـ مساهمة منه في خدمة الرسالة التي هو الآن يمثلها بورع ونظافة كف . إن الرسالة التي كان يتمنى جدّك أن يتعهدها أبوك ، لم تُسْتَجَبْ تمنياته ، انما هي الآن بحكم واقع آخر ، بين يدي رجل آخر .

كنت في بداية عقدك الثاني لما استل أبو لؤلؤة ، غلام المغيرة ، خنجره وضرب به خاصرة الخليفة ، فأرداه يعالج سكرات الموت ! لقد هزّ الحادث كيانك المنقول حديثاً إلى باحة الرجولة المتحلية بالادراك والنضج والفهم ، ولقد أوقفك ملياً أمام نفسك تفتش عن سبب الجريمة ، ربما وجدت أن قساوة الخليفة في توزيع الضرائب بين الناس ، هي التي اردته ضحية ـ ربما رأيت أن حقداً موروثاً بين القبائل هو الذي اشتغل في أخذ ثأر ـ ربما بدأت تدرك أن المجتمع المريض لم يعمل بعد على تخليص ذاته من أورام مرضه ، ففعل التخلف فيه ما فعل على يد أبي لؤلؤة ـ ولكن النتيجة واحدة ـ ان الخليفة قد مات ـ حرام أن تصاب الخلافة بعقاب لا يستحقه نبل الرسالة .

ـ ٥ ـ

ها هي زحمة من الأحداث بدأت تتمثل تباعاً أمامك فوق الساحة التي مات عليها الخليفة ـ لم يمهله خنجر ابو لؤلؤة أكثر من أيام معدودة ، تمكن أثناءها من تأليف مجلس استشاريّ أسند إليه أمر تعيين خليفة جديد يتسلم زمام الحكم وادارة المسلمين ـ لم يكن مسموحاً للمقرر فيه ـ عبد الرحمن بن عوف ـ أن يتجاوز حدّاً مفروضاً عليه مسبقاً في التعيين ، مما سهل وصول الخلافة إلى عثمان بن عفان ـ لقد كان أبوك يستشعر حصول ذلك ، وأنت كذلك ـ وإن كنت في مستهل الرجولة والنضج ـ أصبحت تدرك أيّ حطب تُسْتَحَثُّ نارُهُ تحت القدر المعد لطباخة مثل هذا الثريد ـ ولكن الذي راح ، بوقاحة ، يتكشّف كأنه

يسابق الزمن إلى الظهور والبروز ـ هو اسناد كل وظائف الدولة المرموقة والحساسة ، إلى بني أمية بالتخصيص ، وها هو معاوية ، حاكم الشام ، يتمتع بنفوذ وسيع الصلاحيات ، وسعها له عثمان ، من أجل الغاية المبيتة بقصد وفن !

لم تخف عليك أيّها السيّد ، لا فصول الرواية ، ولا حتى مشاهدها الصغيرة الجانبية ، ورحت مع أبيك تنبهان الخليفة إلى وجوب تلافي الأخطاء ، والتخفيف من غلوائها ـ ليست الخلافة مركزاً يستهان به في خدمة المسلمين ، وجمعهم إلى حق هو للكل على السواء ـ ليس الاستئثار بمغانم الحكم هو في خدمة الرسالة ، وليس الحكم أبداً لجني مغنم دون توزيعه على المجتمع بقسط وعدالة ، وليس الحكم سباقاً إلى نفوذ يحقق رغبة في تغذية شهوة ، ولا بؤرة يربو فيها الحقد ، وتتغذى منها الضغينة ، ولا مركزاً حصيناً تتجمع فيه القبائل لتنطلق إلى عمليات سلب ، وغزو ، واغارة على مراعي الغير . . . لقد قيل كل ذلك لعثمان ، انتما بالذات قلتماه له ، وكانت منكما ـ لاصلاحه ـ مشاركة ومساندة ـ فأنتما لم تعتبرا الخلافة إلاّ مركزاً مشقوقاً من صلب الرسالة ، إنه تمثيل للنبي العظيم الذي إستوحى الرسالة ، ليعيش بها وفيها من أجل الأمّة . من هنا تكون الغيرة عليها منبثقة منها ـ ان الغيورين عليها هم من أهلها المنسوبين إليها في حقيقة الجهد ، والتحقيق ، والأصالة .

بهذا الادراك والاقتناع أيّها السيّد ، رحت تنخرط بجيش التحرير تعزيزاً للأمة وربط طاقاتها بجميع مصالحها ـ وهكذا تم تحرير افريقيا، وكنت مع ابن العباس ، وابن جعفر ، وأخيك الحسين ، وكلهم أهلوك من بني البيت ، تحت قيادة عبدالله بن أبي سرح ، أخي عثمان بالرضاعة ـ ولقد اشتركت أيضاً بتحرير طبرستان في الجبهة الشرقية ، بقيادة سعيد بن العاص .

تلك هي مبادراتك ، بعد أن أوفى بك العمر إلى جلوة بدأت تحقق لك حقيقة الاعتبار ـ لم تنجح في تغيير مجرى الاحداث ، ولم تصلح من نيّة عثمان ، ولم تثبط من عزم معاوية ، إلاّ أنها ـ مبادراتك تلك ـ ثبتتك رجلاً مجلّياً بحقيقة

الإمامة . . . ستنظر اليك الساحة الخالية منك ، وتطلبك إلى نوع من التمثيل ، ولا فرق إن جئتها إماماً ، أم خليفة ، أم رجلاً بلا حقيبة ـ طالما أن الزمن لم تتكثف ثوانيه على رقاص الساعة .

ـ ٦ ـ

لقد انقلب الدهر على عثمان ـ ماذا نقول ؟ هل هو القصاص ؟ وهل طال القصاص كذلك صدر ابن الخطاب ؟ فهوى ذليلاً بين يدي قاتل ـ نحر ، ثم انتحر تحت قدمي من قتله ؟! وأي عقاب كان للامام علي على جهاد وصل عمره بطرفيه في ساحات الجهاد ، وفي باحات التحقيق لرسالة الاسلام ! أيه يا ابن ملجم ، اتكون أنت منفذاً لحكم القضاء !

جل ما في الأمر أيّها السيّد انك احتككت بصلب الأحداث ، وفهمت أن المجتمع وحدة في الفهم وفي الاخطاء ، وان التردّي في المجتمع لا يفرق بين طينة ذكية وطينة سخيفة ، فهو يصيب الفريقين ، إلى أن يخفف الشطر الفاهم من ثقل الجهل ، ويرده رويداً رويداً إلى حقيقة الصواب .

ها انك اليوم ، وقد افضى مقتل عثمان إلى عكر ادى إلى مقتل أبيك ـ وجهاً لوجه أمام معاوية ، يسنده كل بني حرب ، وكل من يلوذ به من القبائل ـ اتراك تشد الحبال ، إلى ساحات النزال ، في سبيل كبح الأهواء ، ورد الحقيقة إلى واقع الصراع ـ ام انك ستوهى ـ بواقع المجتمع المرير : تقدم له الدواء إلى أن يقبل ـ هو ـ تناول الدواء !!!

معاوية بن ابي سفيان

أيّها السيد الخطير

ها إن القلم يصل اليك ، وهو يقف مشدوهاً حيالك ـ كيف يرسمك ؟ كيف يتناولك بالتحديد ؟ كيف يلبسك قمصانك المنسوجة منك ، والمدبوغة بجلدك ، كأنّك أنت نولها ، وحياكتها ، ومكوكها ! أنت عظيم على ما يبدو ،

ولكن العظمة هذه ـ كما يبدو أيضاً ـ جاءت بها التحاديد إلى مفاوز ما جمعت عليك الشعاع أكثر مما كسرته تكسيراً ـ فإذا أنت قطعة من فسيفساء هي لك من زخرف الشام ـ صناعتها المزركشة ـ واذا أنت من بلورات الأرض انعكاسات تشرب النور ملوّناً بكل ساعة من ساعات النهار : فأنت مع الصبح شعاع لطيف يفتش عن منديل مقصَّب يلف به عنقه ـ ومع الظهيرة كابوس شمس يفتش عن ظل ومع ساعات المساء وشاح يفتش عن قيلولة يغمرها حتى ينام بها في حضن حبيب ـ يا للدنيا بين راحتيك ـ حضنتها وحضنتك على عشق متبادل ، جعلتك منها ، وجعلت ذاتها منك في اشتقاق مهووس ، ملطوخ الشفة بالشفة ، والعِطفْ بالعِطفْ ، كأنكما واحد لملء المكان ، وكأنكما رقاص ساعة لجعل الزمان قينة تغني للزمان ـ أنت حيرة على القرطاس إمامي ـ آخذك بنفس مليء بالاندهاش ، ثم لا اعتم أن اغمض عينيّ على وهن يردني إلى خديعة فيك ، يقع بمثلها النظر ، وهو يقيس مسافة في الصحراء بين كثيب وكثيب ، فاذا الرياح تمحو كثيباً من هنا وتلاشيه ، بينما تصنع هناك من الثاني خمسة كثبان . هل كنت هكذا تتناول قميصاً اخضر ، ولا تلبسه إلاّ وقد انهلّ منه عليك عباءتان : واحدة بلون الليل في شعاب مكة ، واخرى بلون النسرين في ربى الشام ؟

لقد ولدت في مكة وربيت فيها بين يدي أبيك أبي سفيان ـ لقد كان يشكل على أبيك التفريق بين العزى ومناة ، أيّهما هو الاله إلاّ قدر في عملية الخلق والتكوين ، وكان يميل إلى هبل في تسليمه قضية ادارة الكون وفك احاجي الوجود ـ لهذا جاء الاسلام ولم يسلس له عود في تقبله دينا يبعثر كمية من الأصنام بعدد أيام السنة كانت تترصع بها الكعبة ، فوق كل لطوة من لطواتها حجر قائم يمثل بضعة من اله ـ الا أنه كان لأبيك أن يؤخذ ببهر كلما وقعت عينه على غزالي مكة المحبوكين بخيوط الذهب ـ لهذا سلمك قوساً وعلمك كيف توترها لتصطاد كل غزال محلّىً بقرنين صافيين من عسجد ، وبخصرين ناعمين أبيضين بلون الفضة ، وبذيلين منسوبين فوق فخذين انيقي اللمس كأنهما عجينة مطيبة بالكافور ـ وبعينين مكحّلتين نائمتين على حبتين من ماس هما شهوة الدنيا إلى الجواهر واللؤلؤ .

لم يكن شحيحاً عليك علم أبيك : كيف تؤخذ الدنيا وكيف تحلب ، وكيف تنصب الشراك للغزلان من حبال السراب حتى تجري سريعاً إلى المناهل فتقع دون أن تشرب . لقد كان لك جد أيضاً نقل اليك تلقيناً كيف تأخذ الخيط من مغزل جار لك فتفتل به حبلاً تشنقه به ، ثم تأخذ المغزل وكل الخيوط التي تكون عليه ـ انه أمية جدّك الحاقد على عمه هاشم ، المكنّى بعمرو العلا ، المكنى بهاشم الثريد ـ هكذا تقول الملح في سير العرب ، في تزاحم القبائل على الغنم أو على مراتب الزعامة . . . هنالك ملحة أيضاً تذكر عن منافرة وقعت بين جدّك أمية وعمّه هاشم ، في أيّهما أكرم وأسخى وأسمح ـ وهي صفات توفّر الزعامة عند رؤساء القبائل ـ ولقد افضت المنافرة تلك إلى إقامة حكم يفرض الحكم وينفذه على أن ينفى الخاسر عن مكة إلى الشام عشر سنين . . . ونفي جدّك أميّة إلى الشام عشر سنين ، ولما رجع إلى مكّة ، بقيت الدار في الشام باسمه ـ من هنا يعلّق المراقبون : لما عينك الخليفة عمر والياً على الشام ، جئت ولم تبحث عن دارة تسكن فيها ، رأساً وصلت وحللت دارة جدّك ـ لقد نزلت تواً في السرير الذي كان ينام فيه ، وكانت الوسادات من حرير الدمقس ، محشوة بصوف من وبر الإبل ، وكانت الجدران مطعمة بالرسوم الملونة ، وكانت الغزلان مشبوحة عليها كأنها تحت وطأة المطاردة ، أو كأنّ عطشاً يطارها مشدوداً بالسراب .

فَلْيُسْمَحْ لنا أيّها السيد أن نبدأ ـ ان الملامح التي سيقت في هذه النبذات القليلة لترسم فيك ، لا يجوز أن تبقى هكذا ملفوفة برموز واشارات ، بل ان الانطلاق منها ، والتوسّع فيها ، هو الذي يخدم الموضوع الذي نسوقه ، ليس اليك ، وأنت قد لففت بأربعة عشر قرناً من الغياب ، بل الينا نحن الآن وقد لففنا بك بحقيقة الاستمرار . فان كانت الأمّة قد أصابت منك هدفاً أو تحقيقاً لصالحها أصيلاً ، فيا ما أطيبك في حقيقة الذكر ، وان تكن ـ عن يدك ـ قد خذلت في أمانيها ، فما احوجنا إلى عتب ولوم نقاضيك بهما ـ لا للشماتة أو الإنتقام ، بل لتقديم تصحيح تستقيم به أيامنا الطالعة في التمنّي لأن يكون الخير في الأمّة هو نبراسها الصادق في الحياة .

ما من شكّ ـ أنه اقرار من التاريخ فيك ـ ان فيك ذكاء رفع فيك العقل إلى مرتبة مميزة التصنيف ، لهذا فأنت ادهى العرب على ما يقال ـ بقطع النظر عن تحديد ماهية الدهاء ، وما هي شروطه الصحيحة لأن يكون ـ أوّلاً ـ عقلاً ، ثم يتحلّى بالصفات التي يكون الدهاء واحدة منها . بهذا الذكاء تمّ لك بروز إلى الساحة ، وبهذا الدهاء الذي تحلّى به ذكاؤك ، ستكون لك مراحل في البروز ، تقتنصها من كل المستجدات التي كنت تزرع الساحة بها ، لتقطفها أينع فاينع ـ ما من أحد أنكر عليك جديد الابتكار في الاستحضار ـ فأنت فذ بين الرجال ـ أنت من الصف الرفيع الذي يعرف كيف يسوق الريح ويلفّها على دواليب النواعير .

ولكن . . . هل أن الذي رجحك إلى الساحة هو فقط ذكاؤك ، أم أن هناك خطّاً سياسياً تمت عليه اللعبة الصامتة ؟ اسمع يا سيدي ، قد يجوز لكل واحد منا أن يكذب على نفسه ـ ولكننا لا نقدر أن نكذب على التاريخ ـ ان التعليل الصحيح لا يسمح للتاريخ أن يكذب ، وإن كذب ، فان المنطق يقاضيه ويردّه إلى صواب . ما من أحد حتى الآن ـ رغم عبور الاجيال وامتصاص الأيام ساعاتها وثوانيها ـ شك بصدق ابن الخطاب وابي بكر في خدمة رسالة الاسلام ، ولكن نيتهما المبيّتة في التصرّف دلت اليهما بوضوح ، انهما يرفضان تسليم النبوة والخلافة لبيت واحد ، هو بيت الطالبيين ـ لهذا كانت الخلافة لقرشي آخر ، هو بحكم الطبع غير طالبي . خمسة وعشرون فخذاً هم بنو قريش ـ ان فخذ الأمويين على الأقل ، هو المريد الأحقد والأصلب في ابعاد النفوذ عن بني طالب ـ الجد «أمية» الذي نوّهت عنه منذ قليل بملحة من الملح ، هو الذي يعيش دائماً فيك أيّها السيد ، وان نيّة الخليفتين : أبي بكر وعمر ، هي أيضاً قد استندت على ذكائك في تمثيل الخط السياسي المعيّن الذي يقطع الوصل بين الخلافة والنبوة ، ويجعل الخط مفتوحاً أمام كل بني قريش ، ان القبائل في العصر هي التي تريد ـ أما النبيّ الذي كان يتمنّى ، فان حياته على الأرض كانت قصيرة وغير كافية لتحقيق الأمنية .

هنالك سند آخر جاءك درعاً جديدة منّعت بها صدرك في ساحة الصراع ـ

انه الخليفة الثالث ، قريبك من بني أميّة ـ عثمان بن عفان ، لقد آزرك ووسّع لك الولاية على جميع أرض الشام ، من حدود فلسطين إلى أبعد من حمص ، وكسح لك حدود البحر ، وأوصلك إلى القاعدة قبرص ـ لقد افسح لك كل مجال في التثبيت ، حتى يكون على يديك بناء ملك لا بناء خلافة ، تتناوله مركزاً لك وللبيت الأموي ، في القضاء نهائياً على كل أمل يختلج به صدر طالبي ـ هاشمي ، لقد توسّم فيك أبو بكر وعمر ذكاءً تتسلم به دائرة الشام ، أمّا عثمان ، فانه وثق بك إلى أبعد الحدود ، بأن فيك ذكاء تتصرف به إلى درجة الدهاء ، وآمن بك طبّاخاً ماهراً تلعب بكل نار تحت أي قدر ـ وتحصد الدنيا إلى بيادرك التي هي بيادر بني أمية .

- ٣ -

منذ ربع قرن وأنت في الشام : في سندس من غوطتها ، وفي ينع من ثمارها ، وفي مرح من سهولها ومروجها ومجاري انهارها ـ لقد كانت كل خيرات الأرض بين يديك ، بحكم ولاية مكّنتك منها سياسة عمر بن الخطاب في تحرير الأمّة وصيانة مواردها ، وتخليصها من النير الروماني المستعمر المستبد ، وقد لبّت الشام سياسة الخليفة ، وسهّلت عمليات الفتح والتحرير أمام خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح ، لا لأنك أنت ستكون الوالي عليها ، ولا لأن جدّك أميّة قد نزل فيها مدة عشر سنين ـ كما تقول الأحدوثة ـ ثم انسحب مخلفاً لك فيها دارة فسيحة ومركزاً قاعدة ثبّتّ أنت له الأركان بذكائك المستحق ـ بل لأن السلسلة الطويلة من الجدود الأقربين والأبعدين ، وآخرهم المصريون والحميريون ، الاسماعيليون والقحطانيون : القرشيون والبكريون والتغلبيون والتميميون ، الأوسيون الخزرجيون الأزديون والكلبيون واللخميون ـ وكلهم المنداحون فوق أرض الشام ، وفوق أرض العراق ، الحاملون الاسم والنسب ، والأرومة العربية ، والمشتركون منذ آلاف السنين بعمارة الأرض ، وزرع البساتين ، وتنظيم الري ، وإنشاء المدن ، وتأسيس الحضارات . لقد جاء الإسلام من أرض بجزيرة الأم ، ليجمع الأم إلى أبنائها المنشورين هنا وهناك

منذ بداية تكوين الانسان فوق الأرض المفتوحة أمام عزم المتنقلين وارادتهم في ترجمة الحياة التي تجذر الإنسان في التربة المعدّة ميداناً أبدياً لعلوق الانسان .

ليس في القول هذا انتقاص منك أيّها السيد ، فالشام ما كانت أبداً ملكاً لك ، بل كانت تلبية لنداء طلبها إلى التحقيق فلبّت ، كما طلب العراق فلبّى ، وكذلك مصر أو المغرب العربي ، ما ساء أبداً خط الرسالة ، رسالة التوحيد ـ لقد كانت لكل القبائل ـ فكما وحّدت بين الأوس والخزرج ، كذلك وحّدت بين الخطين العريضين ، خط مضر وخط حمير ـ والخطّان الموجودان اليوم في الشام ، قد تضافرا أمامك كوالٍ ، وقدّما لك النجدة الكبيرة والعريضة لتثبيتك والياً مقتدراً . ان الرسالة ـ والحالة هذه ـ هي التي جمعت لك السلطان ، فأنت باسمها أصبحت تفعل ، ولقد تمكّنت بها حتى الآن من جعل الحميريين متناسين احقادهم القديمة على المضريين ـ أو على الأقل مجمّدين في عدم اثارتها فاعلة ، لأن الرسالة قضت بذلك ، ولأنه ليس من مصلحة الوالي الذكي ، أن يذكي ناراً تحرق له طبخة لذيذة هي الآن تتقلى في القدر .

إن المهمّة جليلة أيّها السيد أن تمتن اللحمة بين خطّين من خطوط القبائل التي يقوم عليها كيان الأمّة ، ان تلفهما إلى حقيقة اجتماعية بنّاءة ، هي رمي السهام كلها عن صدر الأمّة لجمعها كلها لصيانة الصدر الذي يخفق فيه قلب الأمّة ـ هكذا الرسالة بنظرها إلى الحقيقة ، راحت توحّد بين جميع القبائل والبطون والأفخاذ ـ ولقد قدّمت المثال في التوحيد والموآخات في يثرب بين الأوس والخزرج ، وأنه لمن الايجابيات أيضاً أن يكمل الوالي سيراً في الخط الذي مهّدت له الرسالة بنظرتها الأصيلة إلى الوجود والكون . ألم تكن منصّباً في الشام والياً باسم الرسالة التي تبحث بأمر الانسان الذي هو حقيقة الوجود والكون ؟

ـ ٤ ـ

يطيب لي الآن ان أنوّه عن حدثين متوازيين في الاداء ، مرّا عليك في ذلك الحين ، وكيف ننظر اليهما نحن الآن ، بعين العصر ـ ان الحدثين المتوازيين هذين ، هما شخصان حمل اليك كل واحد منهما رسالة : الأوّل هو بشير بن

النعمان ، والرسالة التي كان يحملها كتبت بحروف مدقوقة على نول ، فواصلها خيوط مكوك ، وحبرها دم مفجور من وريدي الأبهرين ، أما الفكر فيها فتعبير عن ثورة ، قرأتها أنت : جريمة اغتيال ، أنها مشهورة رسالة بشير بن النعمان - اليست قميص عثمان ؟ ملفوفة فيها أصابع زوجته نائلة ، التي قطعت اذ مدّت لوقاية صدر الخليفة من ضربة السيف ؟ لقد تلقيت الرسالة وجعلتها راية منشورة فوق المنابر . أما الرسالة الثانية فلقد حملها اليك - بعد برهة أخرى - جرير بن عبدالله البجلي ، يطلبك فيها الخليفة الامام علي لاجراء لقاء يتم فيه صلح تحقن به دماء المسلمين . ولكنك لم ترد أن تقرأ رسالة جرير ، لأنها كانت في نظرك - على ما يبدو - سخيفة التعبير . أما نحن الآن فلنا أن نفسّرك أنت ، والرسالتان بين يديك ، بأي عين قرأت ، وبأي اذن سمعت ، وبأي قصد طويت رسالة ونشرت أخرى ، تاركين الحكم لك أو عليك إلى مجرى الأحداث التي يأخذها التاريخ إلى خانة النتائج التي تتقيّم عليها عمليات الحساب .

إن الرجل المقتدر الذي هو أنت، عرفت كيف تتسلم أزمة الأمور، وكيف توجهها للوصول بك إلي حيث أنت تريد - لم تفتك السوانح ، لقد كنت تعرف كيف توّجه دواليبها مع الريح ، ولقد وافتك طائعة المجرى - هل أنت بذاتك جعلتها طائعة ؟ وكنت تتمكن ان تجعلها هكذا طائعة ، بفيض من موهبة لك وذكاء - أم أنها انقادت اليك ولك ، مع طيب حظك وسعد نجمك ؟ كل ذلك قد كان لك على مدى خمس وعشرين سنة في ظل ثلاثة خلفاء متعاقبين على الحكم في دنيا المسلمين ، وكان لثلاثتهم تحقيق في سبيل الأمة وتحريرها ، ألم تحرروا أرض الشام من عبث وتسلط قياصرة الروم ، وسهلوا لك ، بكثير من اليسر ، وصولاً إلى ادارة حكم أرض هي درّة في الشرق ، وهي موئل من الموائل العظيمة التي هضمت كل موجات القبائل العربية، ولا تزال تهضمها وتحولها ماهية انسانية عظيمة القيمة ، وعظيمة الحضارة ، وعظيمة التاريخ ، وعظيمة الانسان - انها كلها - هذه الأرض - ممدوة من أقصىٰ الشرق من الخليج العربي ، إلى أقصى الغرب من حدود المتوسط ، على طول الخط الجنوبي الصحراوي من الجزيرة الأم ، أما أنت فلقد خصصت الشام لك بالولاية -

الشام القلب ، والشام الرئة ، والشام السهول ، والشام الجبال ، والهواء ، والظل ، وقسم وفير من المجد الموصول بمجد دجلة والفرات . . . تسلّمت الشام ورحت تديرها دون أن يعكر أحد عليك أي مجرى من المجاري ، لقد لبّتك كل القبائل ، اكانوا مضريين أم حميريين ، أكانوا اديرة أم قسساً رهابين ، أم مواطنين صامتين عاديين ، أم فلاحين زراعين كادحين ، ام تجاراً بارعين ينقلون انتاج الأمّة إلى كل صقع من أصقاعها ، توزيع خير ، وتوزيع انتاج ، وتوزيع رفاهية ـ لقد سكن الجميع اليك ، ووفروا الربح لك ، وحققوه ظلاً لعيالك ، وبيوتك ، وقصورك ، وحققوه منعة لجيشك ، وسيفك ، ونبلك ، وقوسك .

إنّها الحقيقة في القصد ـ على ما يبدو ـ فأنت ما جمعت هكذا الشام إلاّ لتكون لك الشام في حقيقة الملك ، لا لتكون الشام من مجهودك لأي خليفة سواك . لقد كان كل ذلك وضوحاً في مسراك . أما أن يموت عثمان ، فلست أنت لتدافع عنه ، بل لأن يكون موته دفاعاً عنك أنت بالذات ـ أما ان يطلبك الخليفة الجديد إلى صلح ـ فأي معنى لذلك ؟ فأنت لا تطلب صلحاً ، بل تطلب ملكاً يخسرك اياه الصلح الأعور . . . ان تطلب ثاراً لعثمان ، فذلك أيضاً هو مرانك في عمليات الدهاء ـ فالملك لا يثبت إلاّ باسم المسلمين ، باسم الرسالة التي هي الآن جامعة لكل المسلمين ـ وأن تكن أنت من الطلقاء ـ وأن تكن الأخير في الادعاء إنك مسلم ، فأنت الآن في المركز المربوط بحقوقية المسلم ، وأنت أيضاً من صلب قريش ، وأنت في المركز الممتاز الذي ثَبَّتَهُ لك الموهبة ، وأنت الداهية الذي تعلم طويلاً من أين تؤكل الكتف ، وانت المتمرّس الحصين ، وأنت الرجل الكفء في اكتشاف الثغرات ، وفي كيفية سدّها حتى لا تكون فراغاً .

هل قتل عثمان بثورة ؟ أم قتلته يد مجرمة حرّكت على ثورة ؟ سيان ذلك أن تعتمد على تحقيق ، أم إلى رمي تهمة ـ إنَّ نقضك الصلحَ كاف لتوضيح القصد ، بأنك جعلت عثمان لك ولم تجعل نفسك أنت لعثمان ، وأن يكن قد مات ، فهنيئاً له أنه قد مات مخلّفاً لك الساحة الوسيعة التي هي الآن قاعدة لك ، صرفت العمر كله وأنت تشتهيها ، ولن يشتهيها أحد سواك .

رفعت المصاحف ـ يا لعمرو بن العاص ـ انزلتها إلى ساحة العراك ـ عجباً . . . ولم تستنطقها بحرف . . . يا للدنيا ، كيف تطيع بين يدي طالبها ، وتلبّيه بالخديعة الكبرى ! هل هكذا هي أركان الدنيا ؟! تشبع الخادع بخديعته ؟! وتجعله أخيراً يلتهم ثدي أمه بعد أن يكون قد امتصّه ـ عافيةً ـ قطرة قطرة ؟!

ما هكذا الدنيا ـ على ما أرى ـ واعشقها مليئة بالجمال . يا ليتك استنطقت كل حرف من حروف المصاحف ـ لقد كانت أرضتك بأنك عظيم ، وبها ساعتئذ عظيم . لقد كانت أوحت اليك أن العظمة صفة في الإنسان ، يلتقط بها من جدية الحياة ـ يجمعها من زخرف الأرض ، ومن تراب الأرض ، ليجمعها زهراً ، وليجعلها أريجاً ، وليجعلها ثمراً ، وليجعلها روحاً منسوجاً من قدسية التراب ، لقد كانت علمتك بأن الدنيا لا تطيب ـ والحالة هذه ـ إلاّ اذا ازدهرت بحقيقة الإنسان ، وان الدنيا ارتفاع القيمة من جوهر الانسان ـ والقيمة هي المثل العليا التي تفرّق بين الحيوان والإنسان ـ لقد كانت أوحت اليك أن الدولة التي نمّقت حواشيها في الشام هي الدولة الحديثة ، وان تكن أنت قد أخذت لها طرازاً من وحي حكومات بني هرقل ـ فانما هم قد استرقّوها عن اجدادك القدامى القدامى ، الذين علموا الفرس والاغريق الحرف ، ورق خشبة المجذاف ، وتنسيق الري في السهول بعد أن جففوها سن الوحول ، وعمارة المدن وتنسيقها بالشوارع ـ لقد كانت أوحت اليك أنك عظيم تعمل على بناء الأمّة من جديد ، لتكون ملحومة بكل قبائلها حتى تصير أعظم أمّة يتباهى بها فوق الأرض ـ لقد كانت أملت عليك مدَّ يد كريمة إلى اليد الكريمة الثانية التي تطلبك إلى الصلح حتى تشد أزره ، ويشدّ أزرك في الألحام ، وفي تجنيب الأمّة ويلات الحروب والصراع بلا جدوى انصرافاً أكيداً عن حقيقة البناء .

إنني لا أزال احتار فيك أيّها السيد ـ يا كتلة من دهاء ، وكتلة من ذكاء ، كيف أنك لم تصغ إلى آيات الرسالة البيّنات ، وتركت الساحة تخلو منك بريئاً ، لتتشبث بك متهافتاً علي ملك الدنيا وبهارجها ، وحصرها في زوايا بيت أموي يفصل نفسه عن بيت ملاصق له هو بيت طالبي .

ستشاهد بأم عينك أزاحة خصم لك من الساحة المريضة ، على يد ابن ملجم . . . أتراه ـ علي ـ غاب مسهّلاً لك الوصول؟ ولكنه لا يغيب، طالما أنه حرف جليل في حقيقة المصاحف التي احتميت بها في صفين ـ لقد سمعته ينطق بالحرف ذاته في مدينة يثرب على أيام عثمان بن عفان . الا نزال نحن الآن نسمعه يحاضر في ساحات يثرب عاملاً ـ مع ابن عمه عبدالله بن العباس ـ على انعاش الطاقات الفكرية ، غائصاً في الفلسفة ، والمنطق ، والحديث ، والبلاغة ، والفقه ـ انها المواد التي تتألف منها حقيقة المصاحف ـ إنها القوت الغزير المكثّف، والمركز الذي يتملى منه العقل، وتزدهر به مجتمعات الانسان ان بها تلقيحَ الدنيا ، وتجميلَهَا حتى ترتفع بها الحقائق إلى ديمومة ترسمها لها مجاميع القيم .

القسم الثالث

أي كرسي هو الحكم !

المواجهة
جعبة الحكم
المبايعات
أي كرسي هو الحكم ؟!
القرار

المـواجهـة

- ١ -

لا بأس من اعادة الكرة في التلميح إلى مـا سبق البحث فيه ، ليس ذلـك إلاّ طمعاً بالتوضيح والتركيز : أية لحظة من لحظات عمر الحسن لم تكن وقوفاً به ـ وجهاً لوجه ـ أمام معضلة وجودية ، ما تحمل وطأتها إلاّ وبنتـه ـ بالمقـابل ـ بنـاء نفسياً عميقاً ، وألقت عليه مسؤولية جديدة الطراز ، وثقيلة المعاناة ؟

وجهاً لوجه كان ينام في حضن جدّه الحنـون ، يتنقل عـلى زنديـه من كفّ إلى كفّ ، ومن ضمّة إلى قبلة ، ومن لفتة مفتحة العينين ، إلى استغراقة غـائصة في كل مداها .

وجهاً إلى وجه رافق خطوات جدّه العظيم في البيت ، وعلى الدرب المؤدي إلى المسجـد لـوعظ النـاس ، والصـلاة فيهم صـلاة التبـرّك بـالحق ، والتمـرّس بالإيمان الذي يحرر من البغض ، والحقد ، والجبن عن السير في تنقية النفس من ادرانها الوبيئة .

وجهاً لوجه ـ أمام نفسه ـ عندما تجاوز سن التمييز إلى سن الرشـد ـ ادرك المقـاصد ، وفهم المـداليل بـأنه وريث أنيق ومسؤول في إمـامـة ستتصـل بـه عن أبيه ، بعد أن يحرز لها عصمة منها ، تؤكـد له حكـماً موصـلاً إلى تركيـز الرسـالة مادة فاعلة في رفع سوية الأمّة ، وتوسيع الميادين لها بحقيقة التقرير .

وجهاً إلى وجه شاهد تمثيل جميع فصول المأساة في تغيير الاتجاه الملحوظ في اسناد الحكم ـ بالتعيين ـ إلى شخص مثّقف بالرسالة ، مبني مسبقاً لضبط سيرها ، وعدم الشط بها عن مجراها القويم . لقد كان ذلك من فرط حيطة النبيّ الكريم ، في اقتراحه نظاماً جديداً لضبط الحكم ، ودفع الرسالة الجديدة بهذا الحكم ، ليكون جديداً من نوعها ـ ألا وهو نظام الامامة الموسومة بالعصمة ، تمكيناً لحاملها بالمسؤولية الفريدة من نوعها في تعهد الرسالة حتى لا تحيد عن مضامينها ، أن التمرّس بالصفات هو القمين على استحضار المناقب التي يتم بها الحكم ، والتي هي ـ وحدها ـ المادة العظيمة التي تبني الحاكم ، وكل مسؤول في الادارة الاجرائية والتنفيذية التي ترعى هذه القيم وتوزعها على المجموعات الواسعة التي تتألف منها الأمّة . يعني ذلك نشر ثقافة عامة ، نظيفة ، منذ البداية ، تجمع بالحق ، وتوزّع بالعدالة والمساواة ، وتطيّب النفوس بالتقوى والورع ، وتقضي على الفقر الروحيّ والمادي على السواء ، وتوحد المجتمع بالشعور النبيل الذي يقضي على الحرمان ، دون التسابق إلى إحراز زعامات قبائلية قديمة العهود ، لم يعد بحاجة إليها الإنسان الجديد الناشىء في حضن رسالة جديدة عنوانها : الاسلام والتوحيد .

يمكن القول ـ اختصاراً في التحديد ـ ان اقتراح نظام الامامة يبعّد الأمّة عن عمليات انتخابية لم تصب بعد منها حظّاً حضارياً موصلاً إلى إصابة . أما المبايعة فلتكن للامة ، اجماعاً منها ، بقبول الرسالة التي قدّمت الجديد الجامع ، وقدّمت الامام المصطفى معبّراً عنها في حقيقة التمرّس بالفهم والرشد ، فلتكن اقتناعاً منها بأنها وحّدت مساعيها مسبقاً دونما حاجة للرجوع إلى التنافس على مراكز السيادة التي كانت تتوزعها القبائل وتضنى بها في تقاتل كان يرميها في الفقر والجوع والبغض والحقد ، والبعد عن أي تحقيق انساني تجد ازدهارها فيه مجتمعات الانسان .

قد لا أقول بالامامة نظاماً أبدياً ، يرافق الانسان في جميع مراحله التقدمية في الحياة ـ أنه ليليق للمجتمعات التي تصيب شوطاً محترماً من الحضارة

والثقافة ، أن تبتكر أنظمة ودساتير تعبّر بها عن كل جديد لها في الحياة ، يوصلها إلى أوفى ، وإلى أسمى وأرقى ـ ولكني فقط أتساءل : لو أن نظام الإمامة حظي بالقبول ، ورأساً جاء الامام علي إلى مركز الخلافة بصفة الامام ، اجل ـ الامام علي ـ الرجل المصطفى ، الرجل الأوّل الذي اعتنق الاسلام ، والذي لا يزال الاسلام حتى اليوم يقول عنه : رضوان الله عليه ، وكرم الله وجهه ـ ترى ، لو أنه قبل إماماً خليفة ـ أي بالتوصية إلى تغافلوا عنها ـ أكانت قد تغيرت مجاري الأحداث ، وآل بها الاستقرار الى تثبيت رزين ، وبناء عفيف ، وترسيخ ماكن ؟ ألم يكن الامام علي موازياً لعظمة الرسالة وصدقها في بناء المجتمع ، ودعمه بالصواب ؟ ألم يكن القبول به مبايعة اجماعية له ، دون استشارة القبائل وانزالها إلى حلبات الصراع التي كانت تقتل المتصارعين ولا تجمعهم إلى صواب ؟ افترض ذلك وأنا أسمع صوتاً من هنا أو من هناك : ـ ولكنه وصل إلى الحكم ، فهل نجّى من قتال ؟! ـ ولكنه لم يصل أبداً إلى الحكم ، بل ان الذي وصل إليه هو المرض الذي ينتج من حوملة القتال ـ اثنّي القول الذي بنيته على افتراض : لو أن علياً قُبِلَ فاتحة في النظام ، لكانت تبركت به الأجيال ، ولكانت ترفض التخلي عنه ، كما أنها لا تزال ترفض التخلي عن الاسلام الذي يجمعها كلاً ، ويجمعها ديناً ودنياً ، ويجمعها عالماً يرجح به الغد الكبير .

ـ ٢ ـ

وكان للحسن أن وقف وجهاً لوجه أمام أحداث جسام كشفت أمامه ـ بالتدريج ـ واقع البيئة التي عاش فيها جدّه العظيم ، وأبوه الذي عانى وطأة الجهاد ، فاذا هي بيئة مفتوحة فوق أرض فسيحة الأرجاء ولكنها مشوية بالبراكين ، تتلاعب بها الريح ذرياً للرمال ، فتعلو أبداً كثباناً ، ثم تنبري مخلّفة لججاً يطمو عليها السراب دون أن يطفىء لها ظمأ ـ واحة هنا وواحة هناك لا يطول لها أمد ، ولا يستقر بها خصب تظلله سماء ، ـ فواصل فواصل مزروع بها المكان ، بين كل حقف وحقف فجوات مستطيلة من فدافد تملأها الشمس بالحرات

ولا تقطعها الرواحل إلاّ في لطوات من حلك الليالي المستضيئة ـ ابداً بغوامز النجوم .

لقد انتشرت فوق هذه الأرض ألوف القبائل، تتوزعها المساحات والمسافات ، في ظعن دائم مشدود النعال ومشدود الرحال ـ ولقد كان الرحيل يلعب بها كلما اشتد عليها ضيق المكان ـ لا بمساحاته المترامية الاطراف ، بل بشحه الأغبر ، ورماله السمر الحمر ـ اللهم إلا جنوب سعيد ـ اليمن ـ كان تعويضاً حلواً ، وان يكن زهيداً بالنسبة إلى مدود طويلة تأكلها الأحقاف ، وترتج بها رياح من سراب . هكذا كانت تتجمع القبائل افواجاً أفواجاً ، وتنداح متسربة في انسيابات كبيرة إلى الجهات الأربع من حدود المكان ـ والجهات الأربع تعني بالضبط ، كل ارجاء العالم العربي ، لقد دمغته عربياً كل هذه الموجات الفائضة والمتسربة من أرض الجزيرة الأم ، عبر آلاف السنين ، من خلف الليالي الطوال ، من خلف حدود التاريخ ، من صلب وجود القبائل المنتشرة فوق أرض الجزيرة ، من حدود حاجة الانسان إلى زرع نفسه في الأرض التي تفتش عن الانسان لتتبناه .

كل هذه الأقطار التي توصل إليها النزوح ، والتسرب ، والانسياب ـ كما يحلو للوصف أن يسميها ـ هي انفتاحات جغرافية موصولة المكان بالمكان ـ عبر البيد والصحاري ـ وموصولة الزمان بالزمان ـ عبر الأيام والليالي ـ انها كلها ، سجل حياتي لمآتي هذا الانسان ، في عملية موحدة الانسياق ، وموحدة الاخراج، وموحدة الاسلوب، جمعها المكان ـ وجمعها الزمان، وجمعها النهج في التفتيش ، وسيّان ان كانت أقطاراً لعدة أمم ، كما يقول العلم في تقسيم بيئات الأرض ، أم كانت أمّة واحدة ، كما تشهد لها غزارة الانسيابات من المصدر الواحد ـ فهي بالنتيجة الحتمية ، حدود تكميليّة للعالم العربي . الذي تجمعه إلى ذاته وحدة في الأصل ، يشهد لها المكان ، ويشهد لها وسع الزمان ، قبل أن تصبح تاريخاً جليل الفهم ، وفصيح اللسان .

هذه هي البيئة ، بيئة الجزيرة العربية التي كانت ـ رغم حدودها الكبيرة

الكبيرة ـ صغيرة صغيرة ، حتى تكاملت فاصبحت جاهزة للتلبية . تكاملت بالاندماج ، تكاملت بالانسياب ، تكاملت بالتفتيش عن ذاتها الحائرة !!! ولكنَّ الرسالة ذات النزعة الانسانية في الاسلام هي التي جاءت في حقيقة التكميل الوجودي لهذه البيئة الحائرة على صفحة الأرض لتضمّها إلى حقيقة الوجود ، وهذا هو دور الاسلام في اعادة فتح مجاري الحياة في العالم القديم كله .

بهذه العين الوسيعة ألَمَّ النبيّ العظيم بحدود الأمّة النائمة غافلة عن كل امكاناتها المطروحة على ساحات الأرض . لقد انحصرت كل اهتماماته في كيفية جمع هذه الأمّة إلى حقيقتها ، لتصبح فاعلة وحاضرة الوجود . أن يحمل الرسالة ، وان يبلغها ، فمن أجل هذه الأمّة بالذات ، حتى يجمعها ، ويوحدها ، ويجعلها قويّة فاعلة . لا وايم الحق ، لم يغرق الرسول العميق الفكر والرأي والخيال ، في خلواته الروحية الصادقة الذات ، من اجل تحديد علة الوجود ، وصيانة حدود الله جلّ جلاله ـ وحسب ـ ليس الله العزيز الحكيم ، بحاجة إلى تحديد ، بل نحن بحاجة إلى التبصّر به : فهو المطلق العزيز عن المثال ، وهو الشمول الذي لا يلمس له حد في بداية ، أو حد في نهاية ـ انما يكون ذكر اسمه تمثيلاً في اجتباء الحق ، واجتذاباً إلى منازع الخير ، واقترابا من منابع القيم ، وكلها مفومات فاعلة في بناء الانسان المجتمعي الذي يبنيه الصدق ، والعدل ، والمعروف ، ويهدّه الكذب والجهل وكل أسباب التخلّف ، وهي ـ هذه الآفات ـ تعيش في المجتمعات البدائية ، ولا تسير بها خطوة واحدة إلاّ إلى الوراء الذي هو ضعف ، وخمول، وحيرة في وجود الانسان .

تلك هي رسالة النبيّ الجليل، بناها على الإيمان بالله مصدراً مفتوناً بالحق والخير والمعروف ، وهو المصدر الذي يجب أن يغلف الأمّة لتكون عظيمة بمصدرها العظيم ، لأن المصدر هذا هو الحياة ، هو علّة الوجود ، هو استحقاق الأمّة المفتشة عن ملاذها .

من هنا يكون الانطلاق الرحب في جعل الأمّة تدمج المكان بالزمان ، وتلونه بقيم تتفتح بها على ميّزات رسالية حضارية تجعلها عالمية في قدسية

الشوق ، تتآخى بها في الساحات الوسيعة على صفحة الأرض ـ ومن هنا أيضاً كان لرسالة الاسلام التي انطلقت من أغوار هذه الأرض المشرقية ريح ناعمة الحواشي بالحب والسماح والمعروف ، وتعشّق الخير ، والحق ، والعدل ، والمساواة ، مما جعل تراب الأرض كلها ينعجن بها غذاء وحضارة لمجتمعاتها ، واذ تتخلى عنها قيما يبس بها الوجود في انخسافات وحشية همجية لا يخلصها منها إلاّ رجوعها إلى الدائرة الرسالية الملونة بريح هذا الشرق الكريم .

لقد واجهت الحسن كل هذه الحقائق التي املت عليه هذه المعاني ، وهذه المقاصد ، وهذه الغايات ، لتقف به ـ وجهاً لوجه ـ أمام مسؤوليات جسام ألقاها عليه جدّه الكبير بالوصاية المختومة بحقيقة الارث الذي هو ـ بمجرد الحق ـ قيام على فهم الرسالة فهماً أصيلاً ، وقيام على تعهّدها ، لتستمر صاعدة نحو مؤدّاها ومرماها ، ومن أجل هذه الأمّة المطلوبة إلى التحقيق، ولن يكون التحقيق عظيماً إلاّ من خلال الأمّة العظيمة ، ولا تحصل العظمة إلاّ من وحدة المجتمع وتكامله ، ووحدة الفكر ، ووحدة التطبيق ، ووحدة المصدر . . . وكلها وحدات يؤلّفها العقل والوعي في الانسان .

ـ ٣ ـ

من أبلغ المواجهات التي جاءت بانطباعاتها وحفرها في نفس الحسن ، وصول الحكم إلى أبيه وصولاً ممهوراً بدم عثمان . أية ثورة هي هذه الثورة المريضة التي عرّت عثمان من قميصه ، وحذفته عن كرسي الخلافة ، لتشد خصرها الآن ، وتأتي راقصة بثياب «الحمس» أمام علي بن أبي طالب ، تستحثه للنزول إلى الساحة المعمية بالعجاج : عجاج الغبار ، وعجاج الناس العور الذين لا يعرفون كيف يتنفسون إلاّ بعد أن يختنقوا بالغبار الذي يكونون ـ هم ـ قد أثاروه ـ أين كان الاوسيون والخزرجيون حتى يأتوا اليوم ـ بعد خمس وعشرين سنة ، ليتعرّفوا إلى فتى الساحة ، ويطلبوا نزوله إلى حلبة الصراع ؟

باسم الأوس والخزرج، باسم الأنصار، باسم القبائل الخاسرة مركزاً

للزعامة ، باسم الخط الحاقد والرافض القبول ببني حرب ممثلين بمعاوية ، جاءت الثورة تحذف ابن عفان ، وتتعلق بذيل ابن أبي طالب ، لا لتنظيف الساحة من الاعوجاج ، بل لحذف بني أمية من الساحة . ان الرسالة بالذات ـ منذ المبتدأ ـ منذ دخولها إلى ساحات مكة ـ لم تر صواباً أن تحذف بني أمية من باحات النصر ، بل أرادت أن توحّدهم في عمليات الاندماج ، حتى يكتمل النصر بهم لا عليهم ـ حتى يكون بهم التوحيد الرائع ، حتى يشعروا ـ هم ـ انهم ليسوا فقط الطلقاء ، بل هم أيضاً الموحدون في الخط الذي لا يجوز بعد الآن أن ينشق إلى مضرّي وحميري ، حتى يتأكدوا ـ هم الأمويون ، وكل الزاحفين من هذه الساعة الكبيرة إلى التحقيق المرصود ـ ان خيطان القبائل هي المجدولة الآن في الحبل المتين الذي يتزنر به في هذه اللحظة بالذات ، خصر الأمّة الموحّدة والناهدة إلى اكتشاف ذاتها في حقيقة الكيان .

لو أن الثائرين الذين حذفوا عثمان ، والذين يركضون الآن لتولية الامام ، ادركوا فعلاً ، وهم في يثرب ، ثم في مكة ، حقيقة الرسالة ، وحقيقة جوهرها ، لما كانوا تركوا لحظة واحدة تمر عن عتمة الليل ، عندما اطبق الرسول جفنه عن متابعة الرؤيا ، إلا وكان لهم القرار العنيد بالقاء الزمام إلى الامام .

أي تأخير طال إلى الآن أمده ، ينظف الساحة من الأمويين ـ ولا أعني بالضبط بني أمية ، بل اعني بالاشارة العريضة ، كل القبائل الذين راحوا يلعبون في الساحة لعبتهم القديمة في التفاف كل قبيلة حول زعيمها للوصول به إلى المركز الشهي . ليس وصول معاوية إلى حكم يتم بلا التفاف قبلي ـ ليكون الشد إلى زحزحته عن الحكم ، مربوطاً بالتفاف قبلي معاكس ، يتم به النزول إلى الساحة ، والسيوف مشرعة ، والغبار مثار ، والحناجر مبحوحة : يا لبني مضر ، يا لبني حمير ، يا لثارات العرب .

لقد شاهد الحسن أباه الامام كيف رضخ للتلبية ، كأنه قبل بالهزيمة التي لا مفر منها . ليس في النزول إلى ساحات الصراع هزيمة ، بل القبول بصراع ليس فيه تحقيق لأية بطولة هو الهزيمة أين هو صراع الامس الذي انتصر على كل

قبيلة كانت تنهزم بها جميع قبائل الجزيرة ـ من صراع اليوم الذي هو احياء الميت وارجاعه من رمسه العفن إلى ساحة النضال ؟! هل بامكان الامام الآن أن يتقدّم خطوة واحدة من مكانه بلا سيف يستعيره من هذه القبيلة ليضرب به لبان جواد يعتليه فارس من القبيلة المعادية ؟ وبالرغم من ذلك تمَّ القبول بنيَّة استخدام الذل للتخلص من الذل ـ بنيَّة استحضار القبلية للانتصار بها عليها ، في عملية تجديد يستفيق بها الغافلون إلى حقيقة تركوها تنام ، فاذا هي الآن قذى في عيونهم تحرمهم الراحة ولذة النوم .

أجل ـ لقد شاهد الحسن أباه يقوم إلى التلبية ، وشاهده كيف التجأ إلى الحق يقوّم به أَسْلَةَ رمحه ، ولكن الخصم الذي كان يلوِّح بقميص عثمان ـ لم يكن اذكى ، بل كان أمرن في استعمال الدنيا ، والين في أخذها بدهاء ، وادهى في لثم راحتيها وقدميها ، وحتى نعليها ـ فهي التي كان يرضيها الغزل ، حتى الصفاقة في الغزل ـ انها الدنيا ـ انها اللحم ، أنها الدم ، انها الشرايين الزرق التي تتغذى بكل احمر مدفوق عليها بلون اللذاذات المنتشبة في ضلوع الوحش . . . اين هو الامام علي من تناول الدنيا باسلوب عريان من رشاقة الروح وقدسية عطرها ؟ من هنا كان لمعاوية استعمال أساليب مبتكرة في جعل الساحة تنساق إليه ، من حيث كان متعذراً على الامام أن يبتدرها ، ومن حيث كان لمعاوية استعداد مركّز في الشام ، منذ أكثر من خمس وعشرين سنة ، على هدف مدروس ، ولم يكن شيء من ذلك موفوراً للامام وهو المنحّى عن الحكم أيضاً طيلة المدة ذاتها التي ساندت معاوية إلى مثل هذا البلوغ ـ وفوق ذلك ، فان استدعاء معاوية لأية قبيلة حتى تلبيه ، كان في نهج الامام مرفوضاً ، لأنه كان يطلب حكماً تسنده كل القبائل الموحدة في الرسالة، لا بعض منها يناجزه البعض الآخر ، ويحصل الالتهاء والغاء القوى ، وهدم المجاهيد ، وزعزعة البناء المادي والروحي على السواء .

لقد شاهد الحسن كل ذلك يتمثل على خشبة المسرح ـ يتسلم أبوه الحكم على ضيم ، وعلى تردد مفجع ، لينساق إلى مجابهة الأحداث المفتعلة ،

والمصطنعة ، والمرمية رمياً ذكياً إلى الساحة ـ لقد شاهد الحسن أباه يخوض كل معركة جانبية ، بالم وصبر ممضَّين : من معركة الجمل ، إلى معركة صفين ، إلى معارك النهروان ـ وكلها تهديم لقدرات الأمة التي جاءت الرسالة لتجمعها وترصها خطاً واحداً في عمليات التحقيق الموصل إلى مجد الأمة وفخارها .

لقد حقق أبوه الامام نصرا في معركة الجمل ، ولكنه ـ بالحقيقة ـ كان انهزاماً في حقوق الامة المفروطة ـ وحقق نصراً في معارك النهروان ـ ولكنه أيضاً كان هزيمة نكراء للامة التي اضيعت عن سبلها القويمة ، وخسرت رجالها المدافعين عن حياضها ـ وحققت نصراً في صفين ، ضاع بين صفحات المصاحف المحرومة من آياتها الكبيرة الجامعة . لقد ارادها الامام صفّا واحداً مشدوداً للإسلام وأرادها الآخرون احزاباً وأبواباً مفضية إلى الدنيا .

لقد حاول الامام أن يمشي إلى الوراء حتى يعود فيمشي إلى الامام ، طمعاً باصلاح الخطوط ـ ولكن الهزيمة بقيت له بالمرصاد ـ لقد انبتر الخط ـ لقد كان عزم ابن ملجمٍ أصدق في تمثيل مفاهيم الجماعات التي لم تثقفها بعد حروف الرسالة !

وجهاً لوجه وجد الإمام الحسن نفسه ـ بعد مقتل أبيه ـ أمام معاوية الذي خطط لكل الأحداث ، والذي راح يتلاعب ـ على هواه ـ فوق الساحة المقسومة الآن إلى ساحتين : ساحة شرقية قوامها الكوفة والبصرة وساحة غربية وقوامها الشام .

جعبة الحكم

ـ ١ ـ

وجعبة الحاكم ؟ اجل ـ انها الجعبة التي يجب أن تكون مليئة ، يجب أن تمتلىء جعبة الحاكم قبل أن يأتي إلى الحكم ـ وأن تتابع الامتلاء وهو في الحكم ـ وان لا تفرغ بل أن تزيد أيضاً ، بعد أن يترك الحكم ـ يجب أن يملأها غيابه من

زخم الصدق الذي يكون قد جمع منه كل مواد الحكم ، والا فانها جعبة كاذبة لحاكم كاذب ـ وأنها أيضاً جعبة صادقة بما يكون فيها من التعبير ، حتى ولو أن صاحبها حضّرها ولم يصل بها إلى مرحلة التنفيذ ، فهي له ـ حتى بعد فوات الأوان ـ في الانتظار الرائع لعملية التطبيق والتنفيذ ، فالمجتمعات الانسانية تعتمد في تطورها ، وتقدمها ، وكل تحقيقاتها ، على كثير من المناهج ، غاب مقترحوها ، ومقدموها ، وسانّوها ، وبقي الكثيرون منهم مجهولي الاسماء والهوية ـ ومعنى ذلك أن التراث الانساني هو ـ في حقيقة الانسان ـ توارث مجتمعي لا يفعل إلاّ في صلب المجتمع فعلاً تكاملياً مليئاً بحقيقة الانسان .

إذا كان الحاكم ، وهذه هي صفاته ، وهو صاحب الجعبة المعدة أبداً للامتلاء ـ فأي جعبة عظيمة هي للمشترع العظيم وهي تمتلىء بحكمة الدهور ، ونعمة العقل المبرىء من العقل الأكبر الذي هو ثقل الوجود، وثقل الخلود في الوجود ؟!

على هذا التحديد التلميحي نركز الاتجاه إلى رسالتين تعمّمت بهما هذه المنطقة العظيمة من أرض الشرق ، هما رسالتان موحدتان بالاسلام ـ جاءت الأولى مكثّفة لمبادىء فكرية ـ روحية ـ فلسفية ـ اجتماعية ، عاشت بها حضارة السومريين والأكاديين ـ الأراميين ـ الكنعانيين ـ الفينيقيين المتحدرين جميعهم من أرض الجزيرة الأم ، إلى الأقطار الواسعة المربوطة بوحدة الاتصال الانساني الموحد المصدر ، والمشترك الانتاج والمصير ، وجاءت الثانية مكملة لسابقتها بذات الجوهر ، وذات المبدأ ، وذات التأثير الفكري الروحي الواحد .

لقد كانت الرسالة الأولى هي رسالة عيسى بن مريم ـ وامتلأت جعبته بمادة واحدة هي مادة المحبّة ، ايماناً منه بأن المحبّة وحدها هي التي تثقف المجتمع الانساني ، اذ تطهّره من الحقد والبغض والطمع ، وتطبعه بالخير الذي هو اشتراك في الانتاج الكبير المبني على الصدق ، وعلى حقيقة العلم والفهم ، وعلى تنقية الذات من غرائز الوحش ، وعلى ايلاء النفس جمالاً روحياً ، تعيش به الأرض في ظل السماء ـ لقد شنّ حرباً ـ بالمحبّة على كل ميل يَعْوَجُّ بالشر ،

ويكذب باسم الله ، وباسم المحبّة ـ فاذا كان لاسرائيل أن تتعصب وتتزمت باسم إلهٍ لها أسود العينين ، ومحروق بهشيم من عوسج ، فليكن لها من جعبة عيسى منديل يمسح العمى عن عيون المتعصبين المتزمتين ، المحملين الناس احمالاً ثقيلة ، ولا يمسونها ـ هم ـ باحدى اصابعهم .

لم يجلس عيسى على منصة حكم ، ولم يطلب عرشاً ولكنه زلزل العروش القائمة على غير المحبّة والرحمة والعفاف ، وحكم الأرض كلها باسم الاسلام لله بشريعة الحب ـ ان جعبته التي هي مليئة بالحق والصدق والجمال ، ما زالت حتى اليوم تمتلىء ـ بزخم منه ـ هو زخم الحق الجميل الذي تحيا به مجتمعات الانسان .

ولقد جاءت الرسالة الثانية ، وهي رسالة محمد ، وامتلأت جعبته أيضاً بمادة واحدة ، هي طبق الأصل عن المحبّة التي تؤلف المجتمع ، وتوحّده بالحق الذي هو مطلب مليء بالجوهر ـ أنها ذاتها في التمثيل المجتمعي ـ الانساني ـ الرسالي ، تصدرها هذه الأرض المشرقية الطيبة الريح إلى عباب الأرض ، فاذا الأرض كلها تستمر شدها في صراط مستقيم .

لقد امتلأت جعبة النبيّ الكريم بكل ما يضمن حياة هذه الأمّة ، بكل ما يوحدها ، بكل ما يجمعها إلى ذاتها ، من أطراف أيّامها الماضية المتعاقدة بالتراث ، إلى كل يومها الحاضر الراسخ في الزمان ، إلى الغد المعزز بالاحلام والآمال . ولقد افرغت الرسالة جعبتها على الأرض ، ونفذت كل أغراضها ومراميها واهدافها ـ فاذا هي الأمّة تجتمع باسم الرسالة ، رسالة التوحيد والإسلام ، واذا هي تمتد إلى الآن في عمليات التنفيذ ـ وسيان ـ احصل خلاف في أساليب الجمع ، أو اجتهادات في عمليات الاخراج ـ فان العصور كلها لا تزال موحّدة بالإسلام ـ اتكون قد جاء الحكم فيها باسم الراشدين ، ام باسم الامويين ، أو باسم العباسيين أو الفاطميين والاندلسيين ، أم سواهم من المحتجين والمنتفضين والرافضين .

لقد جمعت الرسالة الكريمة الانسان إلى حظيرتها التوحيدية ، ولم تفرق فيما

بين الناس ، ولقد احتضنتهم منتمين اليها ، يجمعهم الولاء ـ إذ يصدق ـ ويخيبون إلى فرقة اذ يستبد بهم ضياع أو زيغ .

ـ ٢ ـ

ما أرهب الساعة هذه وما أشبهها بالساعة تلك ! ان المسافة الزمنية بين الساعتين تزيد خطوتين عن ربع قرن ـ انها الساعة الحاضرة ، تقف بالامام الحسن ـ وجهاً لوجه أمام أبيه الواقف الآن ـ كالعملاق ـ أمام رهبة الصمت ، مطبقاً شفتيه على بلاغة ما نطق بابلغ منها إلّا ذلك الذي لا يزال ماثلاً أمام عينيه الممرغتين به صامتاً فوق فراش ممدود على الأرض ، ومدقوق الحواشي باعجاد الدهور . هناك جدّه الذي صمت وما زالت له الكلمة تخفق بروح الحق ، كأنها لسان من نار ونور ـ وهنا أبوه الذي يتمدّد أيضاً على فراش من خيش وليف ، إلّا أنه حبك من فصاحة وبلاغة ، تعلّمان الدنيا كلّها كيف تخبز رغيفها المطهّر ، وكيف تملأ به موائدها النظيفة ، وكيف تقتات به بلا شهوة مرّة ، وبلا ورم يشقى بدنسه .

لله ما أروع الإستحضار الذي ملأ منه الحسن جعبته التي يحملها الآن ليتقدم بها إلى الساحة التي تطلبه إلى اثبات وجوده كوريث لرجلين ملتحمين في عملية خلق الجذور من جديد ، وربطها بكل مآتيها بحبال الحياة ، وجعل هذه الحبال أوتاراً يعيش عليها كل نغم حيّ معبّر عن حقيقة الأمّة ، وحقيقة ارتباطاتها بمقومات الوجود ـ إنها هي اللحظة الكبيرة التي القت على الامام الحسن الشعور البكر بالمسؤولية الجليلة، أنها اللحظة الحاضرة التي يقف بها أمام جثمان أبيه المسجّى ، تاركاً له وحده استلام الزمام الذي خلا اليه في هذه اللحظة ، لحظة الموت !

لقد أدرك ، في هذه اللحظة ، ان جعبته التي ما ونى كل عمره يعبئها بكل ما يوسعها ويفيضها على نفسه ـ انما هي الآن تتعبّأ بحقيقة توازي جنى العمر كله . لقد تكشّفت له كل الأبعاد التي كان يرمي اليها جدّه الكبير ، جدّه العظيم، جده الرائي، جدّه الذي راح يعمل على احتواء الأمّة أولاً احتواء كلياً،

واحتواء جزئياً ، قبل أن راح يجمع حجراً حجراً مداميك البناء أمّا عمليات البناء ـ وأن يكن قد جهز لها حجارات الاساس ـ فانه تركها لتصاميم الأجيال التي تبتدىء الآن ـ تحت ناظريه ـ وتمتد إلى الإمام ، برعاية من ذكراه ، ما دامت الحياة تغزل للانسان خيوطها الخضر المزركشة بالآمال السعيدة ، وبالنوايا المليحة ، وبالهدايات المنوّرة بالحق ، والملقّحة بالمعروف ، والمستنيرة بالعقل ـ عقل الإنسان .

لقد أدرك الآن ادراكاً واضحاً ما كان يقصد جدّه العليم ، من تعيين أبيه علي في مركز الخلافة المميزة بالإمامة ـ وذلك تجنيباً للمجتمع الطفل ، الخارج جديداً من عهده البدائي ، والداخل جديداً في البوابة التي تطل به على الباحة التي يتركز فيها مجتمع الانسان . لم يكن ذلك ـ مطلقاً ـ من اجل الاحتفاظ بزعامة لبيت كريم ـ هو منه الجد الكريم ـ أن الذي يهتم بشأن المجتمع الواسع ، لم يضع نصب عينيه احتجاز زعامة لبيت واحد من بيوت الأمّة التي تتألف من ملايين البيوت ومن ملايين السنين، إلى المجال الذي لا ينتهي ـ لا ، وقسماً بالحق ـ لم يكن ذلك ليتراءى أمام خاطر المشترع العظيم الذي يحتوي الجزيرة كلها ، والمجتمع كله ، والتاريخ كله الذي بنيت وتبنى به حقيقة الأجيال ـ انما كان ذلك من أجل صيانة المجتمع الناشىء من فوضى يجب أن تذوب منه ، وهي التي اضنته طويلاً ، وهي التي ـ ما بقيت ـ ستضنيه بلا انقطاع . ان مجتمعاً لم يتثقف بعد ، أو فلنقل ـ لم يتحضر بعد ، لا يجوز أن يعرض بناؤه الجديد لهزات ارتجاجية ، تحركها عليه عمليات انتخابية ، ليس فيها ، لا وعي ، ولا الملم ، ولا مجال ثقافي ظاهر التركيز ـ عندما يتهيأ له ذلك في مداه الصحيح ، فليكن عندئذٍ للحرية الجديدة النابتة من ثقافته العامة ، ومن حقيقة الصواب ، أن تستفيق إلى ذاتها العاقلة وتعمل إلى تعديل مواقفها .

لقد أدرك الامام الحسن الآن أن المجتمع الذي لم يتقيد بالطاعة ، وراح إلى مخالفة الرأي والاقتراح ـ وقع في المحذور ، وبدلاً من أن يبقي خط الخلافة ناعماً بالاستقرار ، ومستمراً بعمليات البناء المركز ، بعيداً عن التشويش ، جاء

كل خليفة جديد مجذوباً إلى مركز الزعامة بقوة انتخابية لم تحققها إلاّ المبايعات ، ولا تعني المبايعات إلاّ تجميع القبائل التي لا تحركها إلى الجمع إلاّ إثارة الأحقاد ، وتحريك الحزازات والعصبيات ، وتلك هي الفوضى ، بدلاً من أن تجمع الشد ، تلغيه ، وبدلاً من أن تجدل الحبل ، تقطعه ، وبدلاً من أن تنشىء العمران ، تهدمه ، وبدلاً من أن تحقن الدم ، تهدره . لقد حصل كل ذلك ـ لقد حصل منذ اللحظة الأولى التي اخطأ فيها عمر بن الخطاب قراءة نية الرسول الحكيم ، فأوّلَ اسنادَ الخلافة إلى علي ، بأنها أحياء لزعامة البيت ، فابعدها عنه ، وهذا كان أوّل خطأ تاريخي يرتكبه سوء التأويل ، وسوء الظن ، وسوء النهج الذي لم يقض على القبلية ، بل ترك لها نزّاً تتنفس به إلى التفريخ الذي يسمم الجذور ، ويبس الأغصان ، ويُمْحِلُهَا من رونق الإخضرار . لو أن ابن الخطاب كان يجيد القراءة ، لما كان هكذا قد تصرف ـ ولكنه تصرف ، دون أن يكون له أن يقرأ النتائج ـ لقد كانت في عهد عثمان بن عفان طلائع النتائج ـ لقد عاشت من جديد قبلية بني أمية ، وقبلية بني أمية معناها استنجاد بخط معينّ ضد خط معينّ اخر ، فَرَطَ الوحدة ، وقَسَّمَ المجتمع ، ونال كثيراً من مداه .

أما وصول الامام علي إلى الخلافة بعد القضاء على عثمان ، فهو وصول ضعيف الرجاء ـ انه وصول ضاعت فرصه منذ زمن طويل ـ لقد خسر كل مؤدياته ، وكل امتيازاته ، وكل معانيه التركيزية ، وكل لزومياته البنائية التكاملية ـ وخسر كل احتياطه في التدارك . لقد جاء حساماً مقصوفاً في الساحة المريضة التي أصبح يلم بها الخور ، لهذا فإنها خلافة عاشت في الهزيمة وماتت في الهزيمة ـ لقد تركت فقط عبرة كبيرة : بأن المجتمع الذي يخسر جوامعه لا بد أن يسقط في المعاناة ، وأن المثل وحدها هي التي ستعود فتحميه إذ يهتدى اليها .

كل ذلك قد أدركه الآن الامام الحسن ، وهو ملفوف بالصمت المخيّم في جو القاعة المسجى فيها أبوه . ان الجعبة التي هي له ، والتي جمع اليها كل مجتلياته من العمر ، يختصرها كلها مما يستوحيه من روح جدّه المهيمن الآن في القاعة المليئة بكل وجوده ، وكل غاياته ومقاصده ـ ان المجتمع العظيم هو كل ما

بـان وكل مـا استتر من مقـاصده ـ إذا زال هـذا المجتمع العـظيم ـ ولا يمكن أن يزول ـ لا يعود للنبي العظيم وجود ـ شرط في الوجود مربـوط بشرط ـ ايجـوز أن يضمحل الانسان من الوجود ويبقى لاله الخلق تصور ؟ كل شيء في المجتمع هو امكـانية انسـانية فـريدة وعـزيزة الخلق والابـداع ، ولا شيء سواهـا يحقق عـلى صفحة الأرض ، اللهم إلاّ بارادة هي العزيزة في الادراك .

كـل ما في جعبـة الحسن هو الإهتمـام بالمجتمـع ، حلم جـدّه ، وأسـاس رسالته ، ومهبط وحيه ـ فاذا كان له أن يستأنف السير على خطى أبيـه ، فلتناول المحاولة في الاصـلاح والترميم ـ أمـا الهزيمـة ، فسيكون لـه أن يرى كيف يحـوّلها نصـراً للأمّـة التي يضنيها الصـراع وينفعها ، من أجـل الـوصـول إلى أي تحقيق ـ ولن تكون الهزيمة إلاّ نوعاً من أنواع الصراع الذي يبين الخطأ حتى يكون تجنبه في اليوم التالي بوابة إلى نوع من نصر يجني منه المجتمع كل محاولاته إلى البلوغ .

المبـايعـات

ـ ١ ـ

والمبايعات ؟ إنها الطريقة القديمة المتبعة عند العرب في جميع قبائلهم المؤلفة من بطون وأفخاذ ـ لقد كانت المبايعة تعبيراً عن جمع رأي كل قبيلة بمفردها حول زعيم لها يدير شؤونها ، ويحكم في قضاياها ، ويدبّر أمـورها ـ وكـل ذلك حسب عادات وتقاليد تخضع لهـا طرق العيش . لقـد كانت المبـايعة تعـيّن الزعيم ، أو توليه أمر القبيلة التي تتعهد له بالطاعة . أما أن يكون الزعماء أو شيـوخ القبائـل كثيـرين ، فان ذلـك عائـد إلى كثرة القبـائل التي يتعـين لكـل فخـذ منهـا زعيم يتصـرف بمقـدراتهـا ، وكـل شؤونها . ربمـا كـان تعيـين كـل صنم من الأصنـام المشرورة في الكعبة ، أو في الأحياء الموزعة في أغلبية المـدن من أرض الجزيـرة ، نتيجة مبايعة له رسخته الهاً يدير شؤون الحياة فوق تلك الأرض .

معنى ذلك أن المبايعات للزعماء ، واخضاع الناس لهم بـالطاعـة العمياء ، كانت نظامـاً بدائيـاً استبداديـاً ، يقسم الأرض إلى زعامـات ، ولم يكن له ـ ولا

مرة ـ ان يجمع الأرض كلها لزعيم واحد يمثلها ، وينظمها ، ويوزع عليها الادارات . قد يكون أن حصل شيء من هذا على أيام الهاشميين ـ مثلاً ـ فتعين نذر قليل من التنظيم بما يشبه التشكيل الاداري . الوزاري ، كوزارة السقاية أو وزارة الرفادة . . . وضبط مواعيد الرحلات الطويلة في الصيف ، أو في الشتاء إلى الجوار ، إلاّ أن ذلك كله لم يجمع دولة ، ولم يصنع حكماً له دلائله الحضارية المحترمة . لقد كان المجتمع العربي كله موزعاً على زعامات قبائلية ، يحصل ما بينهم التقاتل على تقوية كل زعامة بمفردها ، على غيرها من الزعامات الموزعة على عدد القبائل . لم يكن للولاء مفهوم يجني منه المجتمع ، بل أن الولاء كله كان ـ في القبيلة الواحدة ـ لرئيسها المسن ، أو لشيخها المتزعم ، دون أن يكون للأفراد حق الاعتراض أو حق اثبات الوجود ـ لقد كان الفرد رقماً مفرداً في العدد الذي تنطق به لفظة المئة أو لفظة الألف . فليكن المجتمع مركباً من ألف قبيلة ، هنالك ـ إذا ـ ألف زعيم في مجتمع واحد ، أو بالأحرى ألف زعيم على ألف مجتمع ، وهذا معناه : مجتمع واحد مفروط إلى وحدات ، لا معنى لها كلها في ثقل الميزان .

إن الذي وحّد المجتمع وأعطاه ثقلاً في كفة الميزان ، هو الذي دخل مكة ، واحتل الكعبة ، وحطم فيها مئات الأصنام ـ أنه هو الذي جمع القبائل ، ووحدها في زعامة واحدة ، ومحى من الاستعمال كلمة «المبايعة» التي تعني رجوعاً إلى معناها القديم ، وهو احياء الزعامة القبلية التي قضى عليها التوحيد ، ومحتها الرسالة من قاموس المجتمع الجديد. إلا أن كل مبايعة تحصل اليوم، هي جاهلية تمتهن المجتمع وترده إلى أسباب تفسيخه، وتعمل على تهديم بنائه المؤسس جديداً على نظرة في الحق تمسحه بكل حضارة يبنى بها مجتمع الانسان .

- ٢ -

ولكن الرسالة ، رسالة التوحيد والاسلام ، لم تقصد أبداً حذف القبائل من وجود الجزيرة ـ فلنعد القول هذا مراراً وتكراراً ـ انما كان القصد تنجية القبيلة من قبليتها ، تنجية الانسان من غريزة الوحش فيه ، تماماً كي تبقى

الأظافر في الأصابع لحماية الأصابع من تجريحها ، لا لاستعمالها كما يستعملها الذئب أو النسور وطيور الباز ـ ان العقل وحده يدافع عن الانسان ، لا أظافر كفّه ، ونواجز لا تنبت إلّا في فك الحيوان ـ المفترس من الحيوان . تلك مفارقات في حقيقة بنية المجتمع المعد لأن يكون انسانياً متطوراً ومحققاً ذاته في الوجود .

ان تقترح الرسالة ، أو فلنقل : إن يتمنى الرسول ذاته ، صاحب الرسالة ، ان يكون الخليفة من بعده مخصصاً بالنص أو بالتعيين ، فذلك كان منه قصداً بعدم استعمال المبايعة ـ فلفظة المبايعة لا تحمل إلّا معناها ، وفي معناها كانت كل أصنام الجزيرة وكل حزبياتها اليابسة ، وكل تقاليدها البائدة ، التي فيها الميتة والوأد ، ورقص الجن والسعالي ـ لقد كانت المبايعات تعني ، في قاموسها العتيق البالي ، رجوعاً إلى المراعي القاحلة ، رجوعاً إلى ألف ثار وثار ، رجوعاً إلى الدماء والولوغ فيها ، رجوعاً إلى ألف فتنة وفتنة ، وألف قبيلة وقبيلة ، وعشرة آلاف حزازة من حزازات الصدور العفنة بجهلها وأوهامها ، رجوعاً إلى قبائل مفككة تربطها حبال الاطناب ولا تقيها من حرارة الشمس ومن عنعناتها المحروقة بأكبادها .

أما الرسالة التي حزمت أمرها ، وبثت بثها الشافي ، فانها بقيت تنتظر المجتمع السليم الواعي ـ أما أمنية الرسول التي عصي بها الأمر ، فأنها بقيت مجمّدة للتنفيذ : بأن المجتمع الذي لم يتثقف بعد بمحتوى الرسالة ، فان المبايعات تبقى أبداً تأكل مجاهيده إلى أن يضنيه الكلل ، فيرمي بكل قبلية فيه إلى النار التي لا تأكل إلّا ضلوع ابليس ـ ولا ينفخ في نار جهنم إلّا الذين يعيشون على الطائفية القبلية المذهبية ، والرجعية الحزبية ، وكلها تقتات بها زعامات ضيقة تنتفع أبداً بالتخلف ـ أما المجتمع الصحيح ، فهو الذي ينبذها مدركاً أن المجتمع الراقي هو المجتمع الموحد بكل ما فيه ، وبكل ما له ومنه ، وبكل اشارة تشهد له بصدق انسانه في الحياة .

ـ ٣ ـ

منذ نال الصمت شفة الرسول الكريم فامتنع عنها البث والتلميح ،

أصابته موجة الجفاء . فان كانت له الأمنية بأن يكون الامام علي خليفته ، فان تعيين سواه كان استنجاداً بالقبلية حتى تعود . . . إن رفض القبول بجمع الخلافة والنبوة في بيت واحد ، كان ـ ضمناً ـ استدعاء ملحاً للقبلية أن تعود فتثبت مركزها العنيد . كل ردة هي مركز ثابت للقبلية . ان تعيين أو انتخاب شخص آخر للخلافة هو ـ بحكم الطبع ـ من بيت آخر ، أو بالتأكيد ، من القبيلة الأخرى التي ليس منها شخص النبوة . الا تكون هكذا المبايعة لشخص ، فتوصله إلى كرسي الزعامة ؟ لقد كانت كراسي الزعامة كثيرة العدد في عهود الجزيرة ـ أما مقعد الخلافة ، خلافة النبي ، فهو الآن جديد وواحد لجميع القبائل ، ولكل أهل الجزيرة ، ولكل سكانها المقيمين ، والمتفرعين منها بالتمدد التاريخي والحاصل أبداً إلى كل جوار ـ لذلك فان المبايعة التي تحصر المركز بشخص واحد هي بالغة الخطر بعدم التأكد من الحصول بالاجماع على شخص واحد مؤهل للقيادة ـ فاذا حصل الآن اتفاق في اجتماع السقيفة ، فليس يعني أن اجتماعات الغد الآتي سيكون لها ذات النصيب ـ فالقبائل التي سيستنجد بها بنو أمية ، ستكون سقيفتها من طراز غير الطراز الذي بنيت به سقيفة بني ساعدة ، وستكون السقيفة الأخرى التي سيجتمع بها طلحة أو الزبير ، أوسع مربضاً للجمال التي ستحضرها عائشة أم المؤمنين ، لخوض المعارك الجانبية في الكوفة والبصرة .

تلك هي شؤون وشجون ، سيلتجىء إليها خط المبايعات ، من حيث ينشأ الهرج والمرج ، وتتصارع القبائل مجدولة حول زعمائها النازلين إلى الساحة ، ليكون لكل واحد منهم خليفة بعدم التراضي ، وبعدم القبول والرضوخ لزعامة أخرى ، وستصبح الخلافة اثنتين ، وثلاثاً ، أو ربما عشرين أو أكثر . . . ألم يكن لكل قبيلة زعيم يديرها ويرعاها في الملمات ! ها هي الخلافة ، بعد ثلاث جولات ، أصبحت خلافتين : واحدة في الكوفة تجمع العراق على خط معيّن ، وأخرى هي الآن تبسط نفوذها على ربى الشام . أما غد الشام فمرتبط بخيط فاصل بين المضريين والحميريين ، إذا ينقطع فيا لَحَظِّ الشام منه منفرطاً إلى إنقسام ! أما المدينة ومكة في أرض الحجاز ، فان خطوط القبائل

فيهما بانتظار ساعاتٍ حتى تعود إلى النبض وقرع الطبول .

أتكون الرسالة التي اجترحت الأعجوبة المعجزة ، وجمعت الأمّة من كل حواشيها المنظورة وغير المنظورة إلى وحدة رائعة المصير ورائعة التعبير، تقف الآن حائرة على المفرق الملتاع ، تضع نفسها على المفرق المعوج ، وتعمل على بسط ذاتها في وسط الساحة ، وتقدم ذاتها مصدراً صالحاً يغرف منه الجميع ثقافة معينة تصطلح بها النفوس ، وتطيب من اخطائها ، وتعدل خطواتها في السير الموصل إلى حقيقة جمع الأمة جمعاً موحداً يمكنها من قوتها المنتجة ، ويبعد عنها خطر الانزلاق ؟

- ٤ -

كان الزعيم الإنصاري قيس بن سعد أوّل المبايعين للامام الحسن :

ـ أبسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وقتال المحلين .

وكان جواب الامام كثير الاختصار وبليغ الدلالة :

ـ على كتاب الله وسنة نبيه ـ فانهما يأتيان على كل شرط .

وكانت البيعة من الكوفة ، وأهل البصرة ، وأهل العراق ، والمدائن ، وأهل فارس ، وجاءته البيعة من الحجاز، ومن اليمانيين ، ولم تبايع عائشة أم المؤمنين ، ولا بنو أزد ، ولا بنو ضبّة ، ولا بنو أمية ، ولا أحد من أهل الشام المسحورين الآن بامجاد معاوية . .

من هم الطارحون بيعة ، ومن هم الحاجزونها ؟ وهل هي بيعة لخلافة ؟ أم هي بيعة لأخذ ثأر ! فان كانت لخلافة ـ فأين هو المخلوف منها ؟ وأين هو كتابه من الذين يقرأون ؟ وأين هي سنته من الذين هم المؤتمون ؟ متى خضعوا خاشعين فاهمين ؟ ومتى آمنوا مكبرين معظمين ؟ وأين كانوا يتلهون منذ ثلاثة عقود ؟ واذا كانت لأخذ ثأر ـ فيا لتعس الأمّة من المثأور له ومن المثأور منه ـ يا ويل أم القرى ، ويا ويل يثرب ! يا ويل اليمن ويا ويل الحجاز ! يا ويل الجزيرة

الأم ، تتعب الحقب والدهور في تنشئة ابنائها ، وأحفادها ، وكل أجيالها المندثرة ، وأجيالها الطالعة والفخورة الآن بكتابها الجديد الذي هو لها في الصف الأول من الكتب السماوية ـ يا ويلها تعود إلى قراءة عتمات لياليها المصبوغات بثارات بني كلب على بني قيس ! يا ويل البصرة ، ويا ويل الكوفة ، ويا ويل العراق ـ عراق دجلة وعراق الفرات ـ عراق الخصب وعراق السواد ـ يا ويلها من الوافدين إليها على أمل أن يشاركوا فيها بعمارة الأرض ، ورص العمران في حضارات زهت بها ـ في القديم ـ سهول ما بين النهرين ، وتوزعت على العالم نوراً وهدايات ـ يا ويلها من الوافدين الجدد يمدونها بنعمة الله في كتاب ، وبسنته في دستور يطبع المجتمع بالحق ، ويفتح له اقنية لا تضيع بها الدنيا في معالجاتها سبل الحياة ـ يا ويل العراق ـ بدلاً من أن تترسخ لها الديمومة في الاستقرار والتنعم في انفتاح الأمّة على جميع الأقطار في معاطاة كريمة البذل وكريمة الإنفتاح ، واذا هي تقع في خلاف على خلافة ، تفسخ دجلة عن الفرات ، وتوسع البادية على يباسها وقحلها ، لتكون حاجزاً عريضاً بين أرض الرافدين وغوطة الشام ! ما كانت العراق أرضاً يتزاحم عليها المبايعون بالخلافة : عشرات القبائل من هنا لطلحة ، وعشرات القبائل من هناك للزبير ، وفئات من هنا وهناك ، ينامون على ضيم يطالبون بالامام علي ويساندونه ، وفئات من هناك يجمعون الشام وخيراتها لتأليف جيش ضخم زاحف ليقطع الخلافة عن الجميع ليجمعها في عب رجل اسمه معاوية !

في هذه الليلة ، والامام علي مغف غفوة طويلة الصمت على نصلة سيف أوصلها إلى أحشائه ابن ملجم ـ كان الامام الحسن يستعد لأخذ مبايعة له تجعله خليفة على المسلمين وحتى يقوض خلافة ثانية يمهد لها عريضاً في الشام ، معاوية بن أبي سفيان .

أي كرسي هو الحكم !؟

- ١ -

لقد أصبح الكلام الآن كثير التوجيه اليك أيّها الامام ـ لست أدري ان كنت أنا الذي يطرح السؤال عن المعنى المخبأ في كرسي الحكم ، أم انك أنت بالذات توحي إلي البحث في ماهية الحكم ، ومن أي خشب تصنع قوائم الكرسي الذي يجلس عليه شخص الحاكم ، ولكني أرى ، وأسانيد التاريخ تنقل إلي ـ انك لم تحكم ـ بضعة أشهر فقط ، وتنازلت عن الحكم لمصلحة ألدّ عدوٍّ تاريخي لك ، عمل على صقل مئة خنجر صبّها كلها في صدر الامام أبيك ، وطبخ لك قدوراً من السم ، ما ونى يبخها في كل جو تتنفس فيه رئتاك ، حتى أرداك أخيراً مسموماً في زاوية بيت لك في مدينة يثرب ! ونام قريراً تحت قبة قصره الأخضر في الشام ، مثبتاً لإصلابه من بعده ـ كرسي ملك ، خشبه من الأبنوس المطعم بالماس ، والذهب ، وكل أنواع الحجارة الكريمة . . . يا للصولجان الذي يزهو بغلال الأرض ، ودرها ، مجبولة باعراق الناس ، وبكل جهد ينتجه العقل ، والعلم ، وزنود العمل ! وكلها تتحول إلى ألوان يصطبغ بها هذا الصولجان ـ صولجان الحاكم ـ تمييزاً له بالعنفوان المقتدر على صياغة كل شيء له ، في إبراز مجده ، وتلذذه في إشباع شهواته والتنعم بها وسيعاً في الدنيا ، كأن الدنيا وما فيها من تراب وشمس وسحاب ـ انما هي له مبذولة تحت قدميه ، لا يجمعها إلاّ بكراً له في التمتع الشهي الذي يبتكر ، في كل لحظة ، لذاذة جديدة لا تريد أن تشبع ، ولا تريد أن ترتوي ، ولا تريد أن تنطفي .

هذا هو نقل التاريخ عنك ـ كأن التاريخ آلة فقط تأخذ ما يقع تحت عدستها ، دون أن تقلبها من ظاهر إلى باطن ، ومن باطن إلى باطن آخر ، ربما تختفي فيه لؤلؤة لم تحلم أن ترى مثلها عدسة العين .

هذا هو شأنك مع التاريخ ، ومع المؤرخين الذين لم يروا ، أو لم يريدوا إلاّ هكذا أن يروا ، مع أن التاريخ ـ في حقيقته العظيمة ـ هو أن لا يكون فقط

مجذفاً بسيطاً على ظهر خشبة ، بل أن يكون أيضاً غواصاً إلى القاع ، وإلّا فحرام أن يركب سفينة ويتسلم خشبة مجذاف .

فعلاً ـ أنت لم تحكم أيّها الإمام ـ لا معنى لحكم يطول بضعة أشهر ويذهب مع الريح ـ ان الحكم هو مراس ومران ـ انه علم واطلاع وفهم وروية ـ انه ـ أولاً ـ ادارة الذات وفهمها ، والغوص فيها ، حتى يصلح لأن يكون ادارة جيل من الناس . أما أن تحكم بضعة أشهر ثم تتنازل عن الحكم ، فان ذلك ، أيّها الامام ، كان مربوطاً عندك بقصد هو التمهيد للوصول إلى نوع من الحكم يكون هو الأقوى والأبعد والأثبت ، وهو المبني على نظرة صحيحة وجليلة ، لو أن التاريخ تلقط بهذه النظرة عنك ، لكان لنا الآن أن نحترم التاريخ الذي يتمكن من الرؤيا ، ومن تسجيل القرارات .

ولكن ـ بالحقيقة ـ أنت الذي تمرست طويلاً بالحكم أيّها الامام ـ لم تجلس إلى كرسي له قوائم وعوارض من خشب ، ولكنك توصلت وجلست فيه مملؤاً بمعانيه الجليلة ، مغموراً غمراً بكل الأحاسيس والمشاعر ، والمقاصد التي تغني النفس وتشحنها بنبل المرامي التي تخلق الانسان وتصون حدوده بالابعاد ، وهي التي تبقيه حيّاً في انسانية تتألف منها عبقرية المجتمعات الخالدة في مرابع الحياة ـ فليسمح لنا نتأكد من كل ذلك ، اذ نستعيد قراءتك من جديد ، فأنت عظيم أيّها الإمام ، وأنت جدير بكل درس ينشرك على الحقيقة التي لا نزال نترقبها تلمنا إلى دنيانا الصحيحة فيزهو بها مجتمعنا العظيم المبني للوصول إلى كل عظمة .

ـ ٢ ـ

أساساً ، أنت مدعو للحكم ، أنت إمام في ضمير جدّك قبل أن تولد ـ وبعد أن ولدت أصبحت قراراً في حزمة من الشوق المبارك ـ هنيئاً لأمك بك ، فأنت نسيج من خاصرتها الموصولة بخاصرة الحق ـ وهنيئاً لأبيك بخيوط الإرتباط ، تشده إلى جدّك بوجد لا ينسل له خيط ـ ولقد علمت أنت بذلك ـ أخبرتك أمّك ، وأخبرك أبوك أنّك أنت من البيت الذي هو ـ بحد ذاته ـ

قضية ، ولقد فهمت ملياً أنّك أنت القضية ـ بالحس الضمني فهمت ، ومن عطف العين والحضن واليدين فهمت ـ ومن التصرف الكبير الوسيع الحد والبليغ الإشارة فهمت ـ وبالتعيين والتخصيص فهمت ، وأبلغ ما فهمت ، عندما وَسُعَتْ عينك ، وَرشُدَ لمحُكَ وفهمك : ان الذين كان عليهم أن يفهموا ما أرادوا أن يفهموا ، وان الذين قصدوا أن يسمعوا لم يريدوا أن يسمعوا ـ ولقد فهمت أيضاً لماذا لم يريدوا أن يفهموا ولماذا لم يريدوا أن يسمعوا .

لم تكن تعرف ، عندما اغمض جدّك جفنه ، انك مدعو لخوض غمار العصر ، والكشف عن النوايا المخبأة في الصدور ، والاطلاع بكنه قضايا النفس ، والوقوف على أسرار الوجود والعمل على اكتناهها ، والتثقف بكل ذلك حتى يتم لك التمكن من الوصول إلى تحمل المسؤوليات الجسام التي تلقيها على منكبيك اعباء الإمامة التي ادركت فعلاً أنك لها بارادة التعيين ، وارادة التخصيص ، وارادة النبوة . لقد كشفت كل ذلك باحتكاكك المتين بأبيك الكبير الذي كان ملاذك ، وكان عملاقاً أمامك ، وكان حفّاراً في بنائك ، وكان قدوة أمام عينيك وأمام فكرك وأمام خيالك ، وكان كتابك ، وكان حرفاً كبيراً في كل كلمة من قراءاتك ، وكان جلوتك المضيئة ، وكان ارادتك الخفية ، وتصرفك الذي لم يعلن بعد ، ثم انصهرت فيه فلم يكن لك عنه لمحة من انفصال .

لم يتناولك التاريخ بشيء من هذا الوصف وبهذا التحديد ، وبهذا الربط الأصيل ـ لأن التاريخ لا يحاول كثيراً شد حقويه بالمنطق ، ويرضيه السرد الضئيل ، دون أن يستهويه النزول إلى عمق خلف كل تحليل وتعليل ، هل هي خلة عند التاريخ ؟ أم هي كبوة في قلم المؤرخ ، أم أنها ـ في نيته النائمة بين ضلوعه ـ شرخ من شروخ النفس ، تلبس الغرض وتمشي به بلا مبالاة .

جل ما في الأمر أيّها الإمام أنك لم تقدر أن تلبس إلاّ قميصك المتصل بك ـ لم تكن تعرف في المبتدأ أنه قميصك ـ أو أنه قميص أبيك حتى ينتقل اليك ، ولكنك أصبحت تعلم ذلك مع تقدم خطواتك على الطريق . لقد أخذت بحس أن أباك الإمام هو الأولى من أبي بكر ، ولكن أباك تمرّس أمامك

بالصبر على الحيف ، فبدأتْ تكبر حروف الأمثولة أمام عينيك ـ ولما انتقلت الخلافة من جديد ، وعادت فعلاً إلى عمر بن الخطاب الذي هو فارسها المتلاعب بها في الساحة الخرساء ، قرأ عليك أبوك امثولة ثانية في تحمل الضيم ، كيف أنه يقرع النفوس ويجلوها إلى عمق ، وإلى كبر ، ورحت أنت ـ بعين أوسع وبصمت وتأمل ـ تلمح كيف أن الدروب تتغير بها الخطوات إلى انتقال في السير ، تمحّي به المعالم ، وتتحول الأهداف إلى منطلقات أخرى تتشوه معها كل المقاصد .

عندما أصبح عثمان بن عفان في دست الحكم ، اصبحت لك العين ، وهي المدغومة دائماً بعين أبيك ـ ترى بوضوح أكثر ، كيف أن الحبال الملعوب عليها هي للرقص ، أكثر مما هي لحقيقة الحكم ، وأن الحكم الذي يجري تحت عدسة عينك ، هو تماماً على نقيض ما هو مرسوم في تصورك ، أو مهيأ في بالك ـ وعندما رحت وأنت موجس خيفة مما تشاهد ، تسأل أباك الإمام توضيحاً يخفف عنك همّاً وشَجَنا ، اغمض عينيه عن عينيك حتى لا تقرأ فيهما ما يعييك ! من هنا أصبحت تدرك جسامة الأحداث ، وأن تنحية أبيك عن الحكم ما كانت بالأمر البسيط ، ولا بالخاطر العابر ، انما هي بالقصد المدروس ، والاخراج الذي اشتغل به العقل والفن ـ ان الفترة التي مرّت على حكم عثمان ، لم تبعده ـ بالموت ـ عن الساحة إلاّ بعد أن وسعت الساحة وصيرتها ميداناً لبني أمية .

في هذه الفترة بالذات ، وقد غيب الموت ابن عفان ، وقد امتلأت الشام بمعاوية بن أبي سفيان ـ أصبح أبوك بالذات يفتش عنك ، حتى يغرز عينيه في عينيك ، يستجلي فيهما رأيك الغني في مراقبة الأحداث ، وما هي ردة الفعل لديك ـ أما أنت فصرت بدورك تغمض عينيك عن عينيه ، حتى لا يرى فيهما أثراً لأي صدمة خلفتها في النفس سلسلة من الخيبات . . . لكن الإمام أباك الذي قرأ في تأملك الهادي عزماً للروح فيك ، ليس هو إلاّ متين الحَبك ومتين الخيال ، قَبلَ أن ينزل إلى ساحة الجهاد ، عساه يتمكن ـ بالمحاولة ـ أن يرد ضيماً عن بني طالب يعرضهم لتهديدٍ خطرٍ جسيم ـ وعساه يعيد للحكم هيبةً تقيه من

وطأة الدنيا وفورانها ، وعساه يرد إلى الدنيا ما يطيب الذوق فيها وينقيه من الأملاح ـــ ولكن ابن ملجم كان في المرصاد .

- ٣ -

لست أدري لماذا يكون على الأديب ـ مثلاً ـ ان يفسّر الأحداث ، وليس على التاريخ أن يفعل ذلك ؟ اتكون مهمة التاريخ في التلميح الضئيل ، دون أن تكون له قيمة في التحليل والتعليل ؟

لقد ذكر التاريخ ـ بكل بساطة أيّها الامام ـ أنك تناولت الحكم لبضعة أشهر ، ثم غسلت يديك منه ـ هكذا ـ كأنك تغسلهما من قطعة حلوى كنت تأكلها وانتهيت ، كأنك لست من الحكم بشيء ولست له بأي شيء .

ولقد ذكر التاريخ أيضاً أن وصولك إلى الحكم كان بعد مبايعة رصت اليك الصفوف ، فما كان منك إلاّ أن اهملت مبايعيك وتركتهم وحدهم في طرف الميدان ، ورحت تتصرف على هواك .

أي معنى لك أيّها الإمام اذا كان مثل هذا هكذا قد حصل ؟ ولماذا أنا اليوم ـ بعد أربعة عشر جيلاً ـ أقف واحداً في الصف الطويل من المحبين لك والمتهيبين ! إني أرى أن خفة السرد في التاريخ منقصة في حق الذات الانسانية الشريفة ، وتقليل وتخفيف من قيمة الرجال الأفذاذ الذين يجاهدون في نحت حجارة الأساس ، لبناء مجتمعاتهم الانسانية العظيمة ، والإمام الحسن هو واحد من بين هؤلاء النادرين الذين عملوا بعقل وصمت ـ وصمتهم العظيم هو الذي يفسح لهم الآن بالشهادة .

انك في الظاهر أيّها الإمام ، وجهت الحكم لبضعة أشهر ، وتنازلت فعلاً عن الحكم لمصالحة معاوية بن أبي سفيان ، وليس مطلقاً لمصلحته بالذات . أما الحقيقة التي هي أساس في تكوينك الذاتي الموجه ، فأنت للحكم الطويل المرسوم والمعين ، أي : أنت إمام «قمت أم قعدت» لم تسندك السياسة ، سياسة البيئة ، أو سياسة العصر ، حتى تقوم إلى مهمتك الجليلة ، فقعدت عنها ،

مغلول الارادة ، دون أن تغفلها حقاً من حقوقك ، أو لزوماً في ضميرك ووجدانك . لهذا كان تمرّسك في الحكم تمرّساً ضمنياً متكاملاً في ذاته ، ومتكاملاً في تحمل مسؤولياته تجاه الأمّة التي أنت بالذات منتدب للاهتمام بكل شؤونها . من هنا كانت رقابتك على كل الأحداث الموصولة بكرسي الخلافة، رقابة مسؤولة ومحتكّة ، تجمع منها مادة الحكم الصحيح المنزّه والمعصوم عن الخلل والزلل . لقد كان أبوك ذاته في الحكم ـ أكان قائماً فيه أم كان عنه منحّى ـ إنّه أنت في ذاتك الصحيحة ، وأنه اكتمالك في التحامك فيه ، وفي انتدابه عليك حتى تظهر بك الولاية . من هنا بالتمام ، أنك عشت العصر ورافقته حتى انتهى بابيك إلى مأساة !!!

وبالحقيقة أيضاً أن العصر الذي انتهى بموت أبيك لم ينته بك أو اليك ، بل توّقف عندك ، حتى تكون له بداية أخرى ، لم يكتب لها بعد أن ترسخ عهودها، وعند ذاك ـ بالتأكيد ـ سيكون لنا أن نقول : أنت الركيزة الصحيحة في بناء المجتمع الصحيح ، في نظرة إمامية تفي ذاتها حتى تعيش في المجتمع الكبير الذي هو وحده قيمة الإنسان ، ومجد الانسان وروعة الانسان . أما توضيح ذلك ، فله دوره بعد حين .

نعود إلى التاريخ ، ومحاسبة التاريخ على قوله أنك وصلت إلى الحكم بواسطة المبايعة . اجل ـ ولكنك لست أساساً لتقبل بمبايعات من هذا النوع ، فأنت ـ في صياغتك الكبيرة ، وفي حلم جدك العظيم ، وفي كينونة أبيك المنحّى منذ البداية عن الحكم ـ لا تقر بمبايعة تجرّدك عن إمامة ، وتنحدر بك إلى مساندات جانبية تستنجد بها حتى تفسخ الكوفة عن البصرة ، ودجلة عن الفرات وما بين النهرين عن مفارش الغوطة ، واليمن عن الحجاز ، ومكة عن مدينة يثرب ـ فليكن قبولك بالحكم ـ وفي مثل هذا الظرف العصيب بالذات ـ توسيعاً لفسحة من الوقت ، تلملم فيها نفسك إلى جمع ارادتك وقدراتك ، وسيكون لك قرار متخذ من صلب القضية ـ قضية جدّك في رسالته العظيمة ، وقضية أبيك الساقط جديداً ومتعباً فوق أرض الميدان ـ يثبت أنك بمستوى صناعة القرار .

- ٤ -

أيّها السيّد ، أيّها الامام ـ وليسمح لي التاريخ أن أقول : أيّها العظيم .

إني أقر الآن أمامك ، وأمام حقيقتي فيك ، وأمام الواقع الرائع الذي نبتَّ أنت منه ـ اني لم ادرك أنك عظيم إلّا في الفترة الصغيرة التي وصفت بأنها بضعة أشهر ضئيلة جلست فيها إلى كرسي الحكم ، وما انسحبت منه إلّا وفي حوزتك القرار ـ كأنه قصبة السبق التي ينتزعها إلى يمينه الفارس السبّاق من طرف الميدان .

هنالك بطولتان حققتهما مترابطتين في المعنى وفي المغزى : الأولى هي تنازلك عن حكم يتسابق عليه كل طامع طامح ولا يتخلّى عنه ، ولو كلفه ذلك بتر الوريدين ـ ايه لعمري ، كم يبذل الطامحون الطامعون في سبيل كرسي لا ليعدلوا به بين الناس ، بل ليستذلوهم به إلى أبعد من الخضوع والرضوخ والسجود ـ انهم السادة ، لا العادلون الصائنون حدود العباد ، بل انهم المستغلونهم ، والمستعبدونهم والجاعلونهم مطايا إلى امجاد لهم ، هي ثروتهم في الدنيا ، وهي أوهامهم الطائشة الغاشمة ، وهي عقلهم في كل شهوة زائفة عن حقيقة الحكم ، وحقيقة العدل ، وحقيقة الأساس . والثانية اتخاذك القرار النابع من معاناتك الكبيرة ، والذي هو تعبير عن فهم حقيقة المجتمع الإنساني ، وعن فهم تركيبته المادية ـ النفسية ، وعن كيفية تقديم المعالجات الأساسية في فك معضلات ترافقه دائماً في حلبات الصراع ، وتؤدي به من معركة إلى معركة يستفيد منها عقله في عملية التمرّس والتقويم والمرور بالخطأ الذي يتحول إلى زاجرٍ موصلٍ إلى صواب أو إلى نوع من صواب .

بطولتان ـ اذا ـ تفرعت الثانية من الأولى ، أو فلنقل : تضافرتا مندمجتين في بناء الشخصية المثالية التي هي أنت أيّها الامام . فلندرسهما منفصلتين قبل أن نجمعهما في عملية التكوين الرائعة التي منها بنيت ذاتك .

أليس من حقنا أن نسأل : لماذا تنازلت عن الحكم ؟ ولكن ، فليكن لنا مثل هذا التمهيد : أنت موعود بالحكم ، أوبالتالي ، أنت مدعو إليه

بواسطة أبيك على الأقل ـ ومنذ خمس وعشرين سنة ، وصراع حاد قائم على الأرض ، ليحول دون وصول أي واحد من بني طالب إلى الحكم ـ انه صراع قبلي تاريخي منذ الأساس بين بني هاشم ، من طرف ، وبني أمية من طرف آخر ، ولكنه تميز بهذا العنف ، وبهذا الشكل العنيد الذي لا يقبل بأية مهادنة ، بعد ظهورالنبيّ من الطالبيين ، واكتسابهم مقاماً يرجحهم شهرة واحتراماً بين جميع قبائل العرب ويبؤهم مركزاً سياسياً قوي الزعامة ، وبليغ النفوذ !!! ان الوقوف ـ إذاً ـ بوجه مثل هذه الزعامة الملتهبة بنور النبوة، لضرورة لا يجوز تركها إلى الغد ، وإلاّ يستفحل أمرها وتتقهقر أمامها كل الزعامات . من هنا كان السباق إلى اجتماع السقيفة تنفيذاً مدروساً ، ومهيأ ، ومسحوباً من ضلوع القبلية التي ساند لها زعامة ابن الخطاب .

لقد أصبح الطالبيون في أميز كفة سيرجح بها مركز السيادة ، أو مركز الخلافة بعد موت النبيّ . إن المركز الأوّل ـ كما يبدو ، وكما تشير الملامح ، ونية النبيّ ، وارادته المرجّحة كل كفة في الميزان ـ هو من نصيب البيت وأهل البيت . والبيت كله الآن ، يختصره عليّ ، ويمثله عليّ ، ولا يستحق البروز فيه أحد مثل عليّ ـ اشارات بليغة في التوجيه تناثرت من النبيّ على عليّ زوج فاطمة بنت الرسول ، تبتدىء بها ، وتنتهي اليها أمومة تنقل الإرث وتحصره في ولديها الحسن والحسين اللذين ضمّهما جدهما اليه وحصر إرثه بهما ، وسماهما «إمامين قاما أم قعدا» وسيدين من أسياد الجنّة ، ومشمولين بطهارة مميّزة هي ـ فقط ـ مخصصة بأهل البيت .

تلك هي دلائل وجف لها ومنها ـ بنوع عام ـ زعماء القبائل التقليديون ، وبنوع خاص ـ لم يخف غرضه ولم يقل الذعر من حصوله وحدوثه ـ الأمويون . ان السفيانيين ، بوسع الإشارة ، وبلاغة التأكيد هم الخائفون والمذعورون ، وهم العازمون على أي بذل ، حتى لا يكون الدينُ والدنيا في يد الطالبيين في آن معاً . ستكون المعركة ، ما بين الطرفين ، لازمة لاجبة ، وهائجة كاسرة ، ليس لها ذمّة لمهادنة ، فالنصر في الساحة لبني أمية ، لا يعني مهادنة ، بل قضاء مبرماً على عدو قديم ، حتى لا تقوم له أبداً قائمة .

هذا هو واقع القبلية الذي عاد من وأده إلى البروز ، بعد أن اغمض عينيه صاحب الرسالة عن متابعة الرعاية ، ومتابعة التركيز . لقد فوجىء علي بتصرّف عمر بن الخطاب ، ولم يتأخّر كثيراً عن ادراك القصد ، ولكنّه لم يأخذ الأمور بكل ابعادها ـ رويداً رويداً راحت تتوضح لديه الأخطار ، لقد كان وصول الخلافة إلى عثمان بن عفان نذيراً بحلول خطر محدق ببني طالب ، وكان استعداد الرجل تهديداً مباشراً بجعل بني أمية أسياد الساحة . وعداوة الأمويين لا ترحم طالبياً هاشمياً . إن علياً يعرف ذلك ، ويعرف أن تصرف النبيّ بعفوه عنهم عند دخوله مكة منتصراً ، كان انذاك محاولة في جمع الكلمة ، والتخفيف من نزف الجراح حتى تكون الأمّة المجموعة سيّدة متعالية فوق كل الخصومات ، وناسية أحزانها المتولدة من كل غباوة تلفلفها بها قبلياتها الذميمة . ولكن الرسالة ـ على ما يبدو ـ لم تبلغ شأوها في النجاح ، ربما لأن موت النبيّ كان أسرع وأسبق من حدوث التأثير وجعله أبلغ في النفوس ، وربما لأنه كان يلزم بني أميّة جيل آخر من التثقف والتمرّس ، حتى تمحى من نفوسهم نواياهم العتيقة التي تربو بالحقد ، دون أن تدرك ما هو التسامح ، ودون أن تعرف كيف يجب أن يكون تهذيب الدنيا بما يجعلها شريفة محبوبة لا عشيقة مجذوبة إلى فراش من فجور .

كل الذي تحسَّب له الامام عليّ ، وتخوَّف منه ، جعله يقبل بتسلم الحكم ، بعد سقوط عثمان تحت حوافر الثورة ـ لقد كان القبول بالحكم محاولة ركبها الإمام وهو كاره لها ـ انها محاولة اصلاح الخط ، ولكن بعد كثير من فوات الأوان . وما العمل ؟ فان معاوية الذي جمع الشام ، وخيرات الشام ، وكل السيوف والخناجر المدقوقة في أرض الشام ـ انما هو الآن يوجهها إلى صدره ، وفيها القضاء عليه وعلى كل بني طالب . لقد أصبح كل ذلك حاضراً ، ليس فقط في باله ، بل أيضاً مجسّماً أمام عينيه ـ أما المؤلم الذي كان يضنيه وهو يخوض غمار حرب أهلية ـ فهو شعوره بأنه ـ ولو انتصر ـ سيكون المهزوم الأكبر ! ان المهزُمين الذين يصلون ـ بهزيمتهم ـ إلى طرف الميدان ، لا يحق لهم أن يتناولوا بيدهم قصبة السبق الذي هو ـ فقط ـ للسبَّاق الأول ، للفارس الأصيل .

يا حظاً بائساً ينال ابن أبي طالب ! لقد فاتته الجولة الأولى في الساحة التي كانت له ممتازة في يومه البكر ، فاذا هي لأبي بكر تقدمه اليها رئاسة السن ، وهي رئاسة هرمة لناقة تسمى «الوصيلة» عند العرب في قاموس عمر بن لحي ، وكانت الجولة الثانية لعمرو بن الخطاب ، يؤسس فيها للقبائل ألف طنب ، وألف خيمة بلا ظل ! وكانت الجولة الثالثة لابن عفان ـ ذلك الذي ما همه أن يركب كرسي الخلافة إلاّ ليتمكن من صنع نول ما حاك عليه إلاّ قميصاً يستر به صدر معاوية في الشام .

أية هزيمة وصلت الآن لعليّ الذي انسحب من الجزيرة ليكون له سند في الكوفة والبصرة ، لينطلق منهما إلى مقابلة معاوية في صفين على حدود الشام ، ولكي يتلهى بمقاتلة جمل تعتليه عائشة في هودج مشقوق تنفث من خلف سجفه حقداً ، ولا تتقبل منه دخول نسمة من حب وسلام ، ثم ليغرق بمعركة النهروان كأنه جاء ليطعم فيها كل ابليس من أبالسة الكون ، مما هو مفتوت على موائد الشيطان !

بئست الهزيمة التي وصلت مجمعة إليه بعد خمس وعشرين سنة ، وصلت إليه وهو في طرف الميدان ، يحصد ما زرع له ابن الخطاب في حضن ابن عفان ، من حقد ومن زيغ تحصن بها كلها معاوية بن أبي سفيان ، فاذا الدنيا ـ بين يديه ـ حصن له بناه منذ ربع قرن : قصوراً ، وجيوشاً ، وأموالاً ، ودروعاً ، وسيوفاً يهاجم بها صدور الطالبيين ، وصدور كل المسلمين الذين هم في المقلب الثاني خلف صفين .

لست أظن أنه كان مقدراً لابن أبي طالب أيُّ نجاح بعد خمس وعشرين سنة مقهورة وبعيدة عن محورها الأصيل ، أن النجاح العسكري ـ بحد ذاته ـ كان هزيمة بحق المسلمين المتناحرين بحروب أهلية ما استنزفت إلاّ دماءهم ، وما أهدرت إلاّ قواهم ، وما شحنت إلاّ صدورهم بالحقد والضغائن !! أية محاولة مقهورة وبائسة أصاب منها الإمام عليّ ، وهو كما قلت ، معرّىً في طرف الميدان ! اللّهم ، اذا اعددنا له النصر الصحيح ، فلكونه قد وضع حجارة

الاساس في توجيه الحكم النظيف العادل لبناء أية دولة في أي عهد ، بناء مثبتاً على الحقيقة التي لا يقوم إلاّ بها مجتمع الانسان . بعد انتصارك العظيم هذا أيّها الإمام ، فأية خسارة يمكن أن يوقعنا بها غدر ابن ملجم ؟

- ٥ -

أليست كلها ـ هذه الأسباب ـ في الكفّة الضاغطة عليك أيّها الإمام لتتنازل عن الحكم ! هكذا وجدت نفسك ـ بعد سقوط أبيك مضرّجاً بدمائه فوق الساحة التي امتصت كل عمره بالجهاد ـ وجهاً لوجه أمام المعركة التي يطلبك معاوية إلى مقارعتها وجعلها حدّاً فاصلاً بينك وبينه ـ أخذت من المبايعة التي أوصلتك إلى الحكم ، مهلة لك تمكنك من اتخاذ القرار .

منذ قبلت المبايعة ، لم تأخذها مشروطة كما جاءتك من قيس بن سعد إننا نتذكر ذلك :

ـ «أبسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله ، وقتال المحلين» .

وقبلتها مكيّفة بما تخبىء في نيتك وضميرك :

ـ «على كتاب الله وسنة نبيه ، فانهما يأتيان على كل شرط» .

أي أنك قبلت المبايعة بشرطيها الأساسيين ، ولا لزوم للزيادة التي لا يقررها إلاّ رأيك واجتهادك . ان في إسلوب الرد ، وفي اللهجة التي ورد فيها ، مادةً غزيرة يجب أن تقرأ . من هنا يثبت الظن أنك نويت أن تجعل الحكم مجازاً شرعياً للوصول إلى مفاوضات تخدم غرضاً كبيراً مأخوذاً فيه قرارك الحاسم ، فأنت ـ كما يبدو ـ لم تَنْوأنْ تنزلَ إلى مساجلات في القتال ، ولو كنت تظاهرت باعداد الجيش ، وترتيب القيادات فيه ، وحفز الهمم . لقد كان كل ذلك من ضمن تدعيم موقفك حتى تتسنى لك المفاوضة المقصودة ، وكانت للمفاوضة المقصودة هذه ، كل الدلائل للوصول إلى غرض السلم ، لا إلى تسعير القتال ، ولم يكن ثمن السلم ـ في ذلك الحين وذلك الوضع الدقيق الذي كنت فيه ـ أقل من تنازل عن الحكم ، في الوقت الذي ما كان النزول فيه إلى الحرب ـ بالمقابل ـ

أقل من استدعاء نصف الأمة نزولاً إلى الساحات .

أردت السلم ولم ترد الحرب ـ لا استرضاء ، وجبناً ، وخوراً ، وخمولاً ، كما أراد أن يرشقك المتهمون ـ بل تحقيقاً لمبدأ أنت وحدك توصلت إلى إدراكه ورسمه في مجال التحقيق والتطبيق . لقد كان من حقك أن تلم بالاوضاع ، من ضمن ما هو منوط بك الالمام به ـ فالامامة هي فرض عليك بالاحاطة والاحتواء ، وان الاتزان والبعد في النظر ، هما من الاتصافات الثابتة للامامة التي هي الآن ترخي عليك ثقلاً في المسؤولية الجسيمة تجاه أمة لملمها جدّك العظيم إلى تثبيت وجود أضحى مربوطاً بالقيمة والوزن .

في هذه اللحظة بالذات ـ والمسؤولية اجتمعت مربوطة في عنقك ـ رأيت أنك مدعو بالحاح إلى حقيقة الغوص ، وحقيقة الفهم ، وحقيقة اتخاذ القرار . لست أقول انك الآن فقط أدركت ، ولكنك الآن أصبحت مسؤولاً لأوّل مرّة ـ مسؤولية مباشرة جعلت لك من الإدراك كثافة لم تجن مثل قيمتها بعد ـ لقد فهمت الآن جدّك الرسول في كل مقاصده ومراميه ـ أدركت لماذا أفنى العمر في سبيل قضية تساوي وجوده ـ أدركت أن الأمّة العظيمة هي كل قضيته ، فصرف عليها كل الإهتمام ، وكل الجهد ، وكل تعليق المصير ، حتى يتمكن من أن يباهي بها جميع أمم الأرض . لقد فتش لها من كل ركن يثبّتها في ساحة الحق ـ محضها بالقرآن العظيم حتى تعيش أبية إلى مجد وابداع ـ عززها بالتوحيد ، بكل معانيه الفكرية ـ الروحية ـ المادية على السواء ، حتى تكون منيعة بالروح لا تضيع عن سبل الحق ، وشبعانة من حبك السواعد التي هي معاول الله في استدرار الخير من تلاحم التراب .

ما قلل جدّك النبيّ من أيلاء الأمّة العظيمة قيمتها الفاعلة ، والتي هي تفاعل الانسان مع أرضه ، ولقد عيّن هذه الأرض التي اكتشفها وجود هذا الانسان ، وَحَصَرَ تفاعله فيها ، وتفاعُلُه فيها أقدم من التاريخ ، وأعمق من الزمان المكشوف ، لهذا أشار ودل إلى هذه الأمّة العظيمة التي صاغ منها عظمته ، ولذا بالضبط حضرها لأن تكون ركيزة انفتاح على العالم بواسطة رسالة

لها ميزاتها الإنسانية العالمية ، في حضور مثالي فيه كل الحق والعدل والمساواة . ستكون حبّة القمح هي رغيفها من دون أن يكون لمحتال أن يركب عتمات الليل إلى بيادرها ـ انها سنة الشرفاء والأحرار في الحياة ليس لهم أن يجنوا إلّا مما يملكون ـ إن الجمع والوحدة والتحرير ، هي كلها من اجل هذه الأرض التي لا تفرقها الأقاليم إلّا ليرصّها التنظيم ، والعيش الواحد المشترك ، إلى مصير واحد يتحقق من أجل العظمة المنشودة . فلتكن الأرض عدة أقاليم ، إلّا ان انسانية الاسلام هي الملقط العظيم الذي يلقطها بالحق ، وهو وحده ميزان الضبط وميزان العظمة .

ذلك هو كتاب الله ، وتلك هي سنّة النبيّ ، من أجل هذا الإنسان حتى يكون عماد مجتمع لا يوصف بالعظمة إلّا بالعمل العظيم ، وكان العمل العظيم في مبادرة بنائية ، أول ما أبعدت عنها قبلية الجزيرة الأم التي عاشت بها دهوراً ، ولم تحقق مجتمعاً ، بالمعنى الصحيح ، إلّا عندما أتاها اللمح التوحيدي ، فردّها إلى زعامة واحدة، لها كتاب واحد وازع، وسنّة واحدة منظّمة، فاذا كانت هذه هي مهمّة الكتاب ، وهذه هي غاية السنة ، فأي معنى يكون لمجتمع يحيد عنهما ، وقد بنياه ، ولا يتلقّط بهما ، وقد جمعاه ، وقد حدداه ، وقد وحّداه ، وقد عززاه ، وقد حرراه ، وقد رسماه للعظمة التي يطمح اليها مجد الإنسان ، وفخر الإنسان ، وحقيقة وجود الإنسان ؟!

وفي هذه اللحظة بالذات ، وقد أَدْرَكْتَ فيها تمام الادراك ، أهمية المجتمع الذي امتص كل اهتمام جدّك العظيم ـ ادركت أيضاً جدية اهتمامه البليغ في عملية بناء الذين سيأخذون من بعده متابعة الجهد في السهر على اتمام عمليات بناء هذه الأمّة حتى تبقى مستمرة في الترقّي واثبات الذات ، فهي أمّة النبيّ ، ولها التاريخ ، ولها اليوم الحاضر ، ولها الغد الأكبر ، ولها الأساس في العروبة الجامعة ، ولها الأرض الكريمة السخاء والتي لا يقطع عنها المدد ، ولها الوحدة الفاعلة ، وسيكون لها نظام اداري يخصص ذاته للعمل الكبير في تولي جميع شؤونها الحياتية .

لقد أدركت أيّها الإمام لماذا خصص جدّك ارثه الواسع في أهل بيته ؛ وليس ارثه مالاً وقصوراً ورياشاً ، بل أمّة ورسالة ، لا لأنه بلا عقب ، ولا لأنه متعصب بالتخصيص لأهل عشيرته . . . ان الذي يبني الأمّة كلها على جهده ، لا يعتبر بلا عقب ، وان الذي وحّد العشائر كلها ، وحزمها بحبل واحد ، لا يتعصّب لشخص واحد يربطه سلك ببني هاشم ـ انما هي العصبية للأمّة العظيمة في الاعداد النفسي المتين لمن يثق به انه هو المختار المتاز لاتمام العمل الجبار ، لوصلة المجتمع الجبّار . من هنا كان الإمام علي هو أبوك الموثوق به ، وكنت أنت هو المتوسّم بك في قضية تناول الإرث إلى القيمومة الفاعلة في حقيقة وجدية الإرتباط .

في هذه اللحظة بالذات ، اشرقت عليك ونوّرت كل الفكر ، وبعمق ونبل أدركت :

- إن بناء الأمّة العظيمة هو مطلب لجوج ، لا محيد عنه ، يخلق الإنسان العظيم الذي يعتز به وجود الانسان .
- أولاً وآخراً ـ هو الإنسان ـ يتلقّط به المجتمع الإنساني ، وبالتالي ، كل أمة بمفردها ، ضمن حدود لها فوق صفحة الأرض ، تلبية لكرم الحياة ، وصيانة لحقوقها الطبيعية المقدّسة ، في التشبث بالوجود الذي هو كلي ومطلق في الله العزيز المثال .
- ان النبيَّ الكريم ، نبيَّ الأمّة العربية بانتسابه اليها وبانتسابها إليه ، لم يقدّم لها كتاباً عربياً ناطق الحرف ، إلاّ ليجعلها أمّة مفتوحة الذراعين على العالم كله ، تحمل رسالة جمع ، وتوحيد ، وتحرر ونور ، وهداية ، وهي كلها رسالة الإسلام ، وهي كلها للأمّة في مركز الإحترام بجليل القدر والمنيع الجانب .
- إن المبادىء في مجتمعات الإنسان، هي التي تبقى ـ بعزة فاعليتها وصلاحها ـ لا الأفراد الذين يقررونها أو يزيدون في تطويرها ، أو يسهرون على تحقيقها وتطبيقها ، وتنفيذها ـ ثم يغيبون .

على هذا الأساس من الادراك المستنير، ركزت ما انتهيت إلى الإقتناع به،

وحصرت هذا الاقتناع بأن الأمّة وحدها هي المقصودة بكل اهتمام ، وان السياسة الحكيمة الفاعلة هي التي تكون لها في التعهد الرشيد الهادف ، وأن المجتمع لا يحقق ذاته عن طريق حكم مبني على عصبيات قبلية ، كما هو شأنه الآن .

لا يجوز اذا ـ وهذا هو الإقتناع ـ ان ينشق المجتمع إلى جبهتين عريضتين متصارعتين ، وهكذا فان الأمّة إلى تدمير ذاتها ، وتفتيت قدراتها ، وهدرها ، وتفكيك كياناتها إلى وحدات متناحرة ترجعها إلى قبلياتها التي ما ان اختفت ، حتى عادت إلى الظهور .

لقد حصل كل ذلك تحت نظرك طيلة النهار الذي ثبت فيه أبوك الإمام وجوده ، ولم يترك الأرض إلى الآخرة التي ارتضته شهيد الصراع ، إلاّ والغصّة في حلقه على أنه لم يقدر أن يرد الشام والعراق إلى الوصلة الكبيرة المنشودة ، وبذلك بقيت الأمة منشقة تتعارك وتتناحر في الميدان الذي اتتك منه المبايعة لمتابعة قتال المحلّين .

أيّ حكم تسلّمت ، لا يقوم إلاّ على قتال المحلّين ! وقتال المحلّين يشل الأمّة ويفنيها ، يشل وحدتها ، ويشل عزمها على الثبات في الوجود .

بامكانك أيّها الإمام أن تجمع كل رصيدك عند القبائل ، وتقاتل به المحلّين ـ ان للقبائل ديدنا لم ينسوا بعد كيف يلبونه نزولاً إلى ساحات الغبار ـ ولكن التنادي هذا إلى تسعير القتال لن يخفف من غلواء معاوية ، ومعه عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه الذي انضم إلى أخيه معاوية في عملية الإلتحاق . . . سيطول الصراع على ذات النمط الذي ابتدىء به مع أبيك الإمام ـ انه صراع مخطط للوصول إليه منذ أن ترك الأرض جدّك الذي أوصاك بالأمّة والعمل على صيانتها وتخليصها من الدمار ! أي معنى للحكم يستمر بالصراع البائس الذي لا يجني إلاّ الدمار ! وأي معنى لحكم لم تأت أنت له ، ولم تبن نفسك للتحصن به ، وأي حكم يصلح وليس له إلاّ القبائل في الدعائم !

لقد ثبّت الآن أيّها الامام ـ في هذه اللحظة من التأمل الكبير ، أمام الواقع الكبير أيضاً ـ كل عزمك ، وكل ارادتك ، وأتخذت القرار .

القـــرار

أيّها الإمام ،

إنها ليلة مررت بها حتى تباشير الصباح ـ كنت مستلقياً في فراشي لما أحسست كأني أعاني وطأة حلم يشبه الكابوس ، مع أني كنت أشعر أني أقلّب كتاباً بين يدي وهو يبحث ملياً فيك . . . ولكن كل شيء حولي راح إلى تحيّر وابهام : فأنا لست في فراشي ، انما أنا ـ هنا وهناك ـ في استحضارات ومشاهدات ليس فيها كثير من التوازن في الربط ، أو تسلسل في تنويع الأحداث . كنت أنت الذي تبدو دائماً أمامي ، مرّة في جبّة طويلة بيضاء تجللك حتى الأخمصين ، وأخرى في شبه غلالة كانت تعريك حتى العظم ـ أما الناس فكانوا ينبتون نبتاً أمامك ، كأنك كنت تستدعيهم استدعاء فيطلون من كل زاوية ، ومن خلف ما يشبه الستائر . لقد كان كل استحضار ـ بمفرده ـ يلفّني بشدّة يسمرني في مكاني ، دون أن ادري ، هل أنت تراني وستستدعيني لتطرح عليّ ومضة من عينيك ، أم أنك ستتركني متغلّفاً بحيرتي وسكوني ، إلى أن يأتي صباح يرشدني اليك . . . إلاّ أني لبثت واقفاً أراقب ما يحدث أمامي في المكان .

رأيت شخصاً يقترب منك وأنت تتنقل في صحن الدار . كان عريض المنكبين ومفتول الساعدين . حاول أن ينبهك إليه بتوجيه الكلام :

ـ حمداً لله أيّها السيّد ، يبدو أن الجرح في كتفك قد طاب . والتفت اليه بعد أن مررت كفّك بسرعة على عاتقك ـ لقد أخذته بعين عاطفة ، بينما كنت تمد يمناك إلى المصافحة .

الإمام : إني أتمنّى لو أفديك اذا وقعت بشدة مثلما فعلت معي يا عبدالله بن حنظل الطائي . اتراه كان شجاعاً مثل ابن ملجم ؟ هذا المدعو : الجراح بن سنان ـ يهوي بمغوله على

كتفي !! لقد وجدت نفسي مجبراً على معاقبة ابن ملجم ، فقطعت عنقه ، لأنه قتل بالسيف المسموم ابي . . . ولكني لن أنتقم من ابن سنان اتعرف يا عبدالله لماذا ؟

كنت أحضر اذني لمعرفة الجواب من عبدالله الطائي ، ولكني فوجئت ببروز الجراح بن سنان ـ لقد تقدم سريعاً من الزاوية ووقف يقول :

الجراح : أنا الذي أسأل أيها السيّد لماذا .

الإمام : لأن سيفك لم يكن مسموماً يا ابن سنان ، وبالتالي لأني شعرت ببطولة فيك لا تريدني اتنازل عن المطالبة بحقّي الذي يتجنّى عليه معاوية .

الجراح : ولماذا لا نقاتل معاوية ونسترد حقّنا منه ؟ لماذا نَسْحَبُ الجيش ونتراجع به من النخيلة إلى ساباط ، بدلاً من أن نسوقه إلى منبج حيث يعسكر عدوّنا معاوية ؟

الامام : لقد وجهنا ثلاث فرق من جيشنا المخيّم في النخيلة إلى منبج ، ولم يرجع أحد من فرق الجيش الينا . فانسحبنا إلى ساباط حتى نلملم جيشاً أصبح ضعيفاً ومهدداً بهزيمة .

الجراح : ماذا تقول أيّها السيد ؟!

الإمام : سل قائد الجيش عبيدالله بن العباس . لقد زحف بعشرة آلاف ولم يعد بعد ـ وسل القائد الكندي : أربعة آلاف ولم يرجع أحد منهم بعد ـ وسل قائد بني مرّة ، أربعة آلاف أيضاً ولم يعد أحد منهم بعد .

الجراح : وكيف ؟

الامام : سدده الجواب يا عبدالله بن حنظل .

ابن حنظل : لأن الكندي باع معاوية أربعة آلاف من قبيلته بني كندة باربعمئة ألف درهم ! ولأن الثاني باع من قبيلته بني مرّة

العدد نفسه وبالصفقة نفسها أيضاً . أما عبيدالله بن العباس ، فلقاء عشرة آلاف رجل تناول ألف ألف درهم .

قال ابن حنظل هذا القول وعصب عينيه بكفّيه وانسحب ، فلحق به ابن سنان واختفيا خلف الستائر ـ بينما الامام قد ساق قدميه المثقلتين بالتعب نحو الزاوية الشرقية المطلّة من المكان الموجود الآن في ساباط على المدائن حيث يشهق أيوان كسرى ـ ولكنه ما أزاح الستار حتى فوجىء بحبر الأمّة عبدالله بن عباس يعاتب أخاه عبيدالله على هذه الهفوة التي لا تغتفر فوقف الامام تجاهه يرمي عليه رمياً نظراته المخنوقة برمش عينيه ، فتناوله ابن العباس بيديه وهو يقول :

لا تنظر إليّ هكذا ـ فأنا ما أقدمت على ما فعلت إلاّ بعد أن شعرت أنّك تحضّر رسلاً إلى معاوية لمفاوضته على الصلح ، عندئذ تصرّفت .

الامام : لا يا ابن العم ـ ليس عليك أن تتصرف بالصلح قبل أن اتناوله أنا بما أمكن من التمهيد وتوفير الشروط التي تحفظ لنا صيانة الرسالة فهي التي نستوحي منها سلامتنا وسلامة الأمّة . لقد أخطأت يا ابن العم ـ فأنا المسؤول الأوّل كما تعلم ، أنا وصيّ جدّي ، وأنا ارثه في تعيين الحق ، وتعيين النهج ، وتقبل الصدمات ، وتحمّلها ، والافادة منها ما أمكن . أتكون أنت من عداد الذين تصدوا لارادة النبيّ في تخليص الأمّة من قبلياتها ، ومن كل فوضى تنتج عنها ! أتكون أنت أيضاً واحداً من الملاجمة الذين قتلوا أبي الامام ؟! ألا ترى أن كل واحد منهم كان ابن ملجم ، قبل أن يولد ابن ملجم ؟! من أبي بكر ـ إلى عمر ـ إلى عثمان ـ إلى معاوية الذي هو رصيد الجميع !

ابن العباس : لا يا ابن العم ـ لا تظلمني بهذا المقدار فأنا تصرّفت بالنوع ذاته الذي تصرّفت به أنت .

الامام : لم يكن من شيمك إلا أن تتكلم بالحق . لست أدري لماذا

انقلبت إلى غير ذاتك ؟ هل لك أن تتبعني خمس خطوات لتأخذ التوضيح ؟

يقول الامام ذلك وهو يشد به قليلاً إلى زاوية مجاورة ـ يزيح ستاراً عنها فتنكشف عن اثنين كأنهما يتحاوران والامام ليقول :

الامام : يا عمرو بن سلمة الهمداني .
ويا محمد بن الأشعث الكندي .
هل أنتما اطلعتما عبيدالله بن العباس ، قائد الجيش ، على المهمّة التي انتدبتما اليها إلى معاوية بن أبي سفيان ؟

الهمداني : اني احترمك يا سيّدي قائد الجيش ، ولكني أمرت ان أكتم عن أي انسان ما أنا أحمله إلى معاوية ـ فهل الامام يتهمني بقطع السر ؟

الكندي : وأنا كذلك يا سيدي ، فهل أكون متّهماً ؟

الامام : ولكنك يا ابن العم لم تلمح ما لمحت إلاّ من معاوية بعد أن رأيت الرسولين عنده ـ أنه أخبرك بذلك حتى يدل بتبجحه عليّ ، وحتى يبالغ في تشوفّه عليك ، أما حصولك منه على ألف ألف درهم فكان أعز لك أن تقبضها مني بعد أن أثبتها حقّاً من حقوقي في مال الفيء ، أصرفه على المسلمين الذين هم الآن في عهدتي .

ابن العباس : اتكون فعلاً قد أبرمت الصلح مع معاوية ؟

الامام : ولقد عرفت ذلك من معاوية بالتأكيد ، لأنه أرسل إليّ شروط الصلح مع رسولين غير هذين الماثلين أمامك يا ابن العم .
انهما ينتظران في القاعة هذه المسدول عليها الستار ، حتى آخذ قراري ، وأدخل عليهما ، وأوقع على جميع البنود التي اقترحتها لقاء تنازلي عن الحكم ، وثمناً لبقاء الحكم في

حوزته ـ سأوقع أمامك هذه البنود كلها ، ثم أوجه الرسولين إلى الشام أمامك ، حتى يكون لي ما أردت لمصلحة هذه الأمّة التي لا أتنازل مطلقاً عن ايلائها حقّها بالاهتمام .

يقول الامام ذلك ويترك الزاوية هذه إلى الزاوية تلك ، ويرفع عنها الستار فاذا الجميع في قاعة مصدّرة بطاولة أمامها كرسي ، وعليها دواة ، ونسختان من اتفاقية الصلح ، وهنا وهناك مقاعد من خشب ، يجلس على مقعد منها رجل وأمّه ، هما عبدالله بن الحارث بن نوفل ، وأمّه وهي أخت معاوية بالذات ، وعلى مقعد آخر عبدالله الطائي والجراح بن سنان ، وعلى مقعد مواز عمرو الهمداني ومحمد الكندي . وما ان يدخل الإمام وابن العباس حتى يقف الجميع ، والإمام ليقول ، مشيراً إلى عبدالله وأمّه :

الامام : هذان هما رسولاي إلى معاوية يا أبن العم . يجلس الامام إلى المقعد ، ويجلس قبالته ابن العباس وحده إلى مقعد آخر موجود في القاعة ، يأخذ الامام النسختين ، وبعد أن يطوي واحدة منهما ويضعها في عبّه ، وقبل أن يوّقع الثانية التي يعرضها الآن بيده يقول :

الامام : طويت إلى عبّي النسخة التي أصبحت لي ، وهي موقعة مسبقاً بخاتم معاوية ـ أما هذه فهي التي أوقّعها الآن تحت عينك يا ابن العباس ـ اني أوقّع واثبت قراري هذا واختصره عليك بثلاثة شروط أساسية :

أولاً : جعل الحسن ولي عهد معاوية .

ثانياً : لا يتعرض لأحد من شيعة أبيه ، والناس كلهم آمنون .

ثالثاً : وللحسن خراج دارابجرد من بلاد فارس .

لما ينتهي من قراءة هذه الشروط يلتفت صوب ابن العباس ويشير معلقاً على طول الاتفاقية الموجودة على عدة صفحات :

الامام : أما هذا كله المكتوب على هذه الصفحات ، فهو شرح لهذه البنود الثلاثة التي قرأتها عليك ، حتى تكون معللة ومفصلة دون أن يتلاعب بها فيما بعد أي اجتهاد أو أي تأويل .

يخيم على القاعة صمت وتأمل ، بينما كان الإمام يتناول القلم من الدواة الموجودة أمامه على الطاولة ، يغمسه في حبر الدواة ـ ثم يوقع به على نسخة الاتفاقية ، ثم يطويها ويناولها لعبدالله بن الحارث بن نوفل وهو يقول :

خذ يا عبدالله ، أوصلها إلى معاوية ، بامكانك الآن أن تذهب .

بينما يقف عبدالله مع أمه ليرحلا ، يتقدم الإمام من المرأة وهو يقول :

أما أنتِ يا أم عبدالله ، فاني انتقيتك خصيصاً لتكوني في الحاشية التي حققت الصلح إني انتقيتك حتى تقومي بمهمة من بلاغ : بلّغي أخاك معاوية ، اني خفت فعلاً دهاءه ، واستبداده وعناده ، وكان لي أن أركب المركب الخشن ، واستمر في الصراع والنزال ، ولكني كرهت أن أعرّض الأمّة جمعاء لمصير أسود . وكي لا يقسو الحكم على بني قريش فينصب عليهم البلاء .

* بلغيه يا أم عبدالله أن حقن الدماء ، دماء الأمّة جمعاء ـ هو قصدي ومبتغاي .
* بلغيه أن القتال يشطر الأمّة الآن إلى جبهتين عريضتين ، وربما غداً إلى جبهات .
* بلغيه أن الشام هي وصلة العراق ، وأن العراق ، هو درع الشام وصدرها الأوسع ، والحقيقة الصارخة : أن الاسلام يفرض حمايتهما ويطلبنا إلى وئام .
* بلغيه أنه لا يجوز لنا أبداً أن نفصل الشام عن العراق ولا أن نفصلهما عن الجزيرة الأم في عالمنا الأوسع .
* بلغيه أن الشام ثروة للأمة ولا يجوز أن نجمعها قصوراً لنا وحدنا وقبباً حمراء . . . وكذلك العراق ثروة للأمة موحدة مع الشام فحذار أن نجعل

الكوفة والبصرة بستاناً فقط لنا لأننا من قريش . وأن مصر والنيل هما في مداناً الوسيع ، فلا نجعل مصر بقرة حلوباً لتكون طعمة لنا إرضاء لخاطر عمرو بن العاص واضرابه .

* بلغيه أنها تكون مهزلة في جريمة وجريمة في مهزلة : ان نعتلي خشبة المسرح ، ونكون نحن أبطال تمثيل المهزلة والمأساة في آن معاً .

* بلغيه أن الأجيال كلها ستطالبنا اذا جعلنا كرسي الحكم لنفوذنا وسيادتنا سبباً لجمع المال والجاه ، وركيزة نستبد بها ونظلم العباد .

* بلغيه أن الجزيرة الأم ، ما وزعت ابناءها على كل بقعة من بقاع العروبة إلاّ ليشاركوا في عمارة الأرض ، وعمارة الحضارات التي ينشئها الإنسان الجميل ، لا ليعيثوا فساداً في الأرض وينقلوا دائماً معهم قبلياتهم القديمة المريضة ، وكلها للتخريب وتوقيف سبل الخير عن مجاريها ـ وكلها عار علينا في عملية الحساب ، تهزمنا في التاريخ وتقاضينا ، وتحكم علينا بالتخلف .

* بلغيه أني اتنازل له عن كرسي حتى يجعله صالحاً لحكم عادل يجمع الرعية في أمّة ، لا أن يقسم الأمّة إلى رعايا تتناحر على جمع المغانم والاستئثار بها .

* بلغيه أن نشر الثقافة هو الذي يجمع الأمة ويقوّي فيها عناصر الخير .

* بلغيه أنه يكون على الخطباء الذين يعتلون المنابر لعظة الناس وتقويم الاخلاق ، وتزيين النفوس بالصدق والعفة والنبل ـ عار عليهم وعلينا . اذ تكون فاتحة القول لديهم لعنة الامام علي الذي هو بحبوحة في مقدساتنا ، ونبراس ومتراس في صدارة اسلامنا .

* بلغيه يا أم عبدالله أن اللعنة هذه ستأخذها علينا الأجيال بوصمة عار ، ليس يستحق شيئاً منها جلال الإسلام وتبشير الإسلام والمقاصد والغايات في حقيقة الإسلام .

* بلغيه أن الحسن يجب أن يصدقه أنه سيصمد نفسه حتى يحكم لا حتى يملك .

* اتقدرين يا أم عبدالله أن تنقلي إلى معاوية تمنياتي هذه حتى يتمكن من حكم هو لي في الأساس ، واني ما تنازلت له عنه إلّا لأجنب الأمّة وقوعاً في مهزلة ومأساة ، أو بالتالي وقوعاً في فراغ !

لقد بقي الجميع صامتين مطرقين . . . يأخذ عبدالله ساعد أمّه ويذهب خارجاً من القاعة ـ يتمشى الإمام قليلاً ـ ثم يتوجّه نحو عبدالله بن العباس بالسؤال :

الامام : ما رأيك يا عبدالله ؟

ابن العباس : هل هذا هو قرارك ؟

الامام : ألا ترى أني هكذا قررت لأني «خشيت أن يُجتث المسلمون عن وجه الأرض» !

ابن سنان : ألا يمكننا أن نقاتل معاوية ؟ وهل هكذا نصالحه ؟

ووجه الامام كلامه للجميع ، بينما كانت سحابة من الحزن تلف عنقه :

الامام : «ما أردت بمصالحة معاوية إلّا أن ادفع عنكم القتل ان الأمر الذي اختلفت فيه مع معاوية ، انما هو حق اتركه لاصلاح أمر الأمّة وحقن دمائها» .

يقول ذلك ويتمشى خارجاً إلى صحن الدار ـ يلحق به عبدالله بن العباس ـ يتوجه الامام نحو الجهة المطلة على ايوان كسرى ـ يزيح الستار ـ يأخذ ابن العباس بيده إلى الواجهة ويقول :

الأمام : هذا هو الايوان الذي بناه كسرى على أرض المدائن ؛ منذ أكثر من عشر سنين ، وجّه الخليفة عثمان جيشاً لابعاد كسرى عن الايوان ـ لقد ترك كسرى ـ فعلاً ـ هذا الايوان .

ابن العباس : وما تقصد من القول .

الامام : لا أقصد بل أسأل : لو أن كسرى لبّى نداء الرسالة التي وجهها جدي اليه ، وفهم حقيقة الاسلام ـ أكان له هكذا أن

يترك قسراً بهرجة من بهارج الدنيا جمعها اليه وحده من سواعد المستعبدين ، بدلاً من أن يردها عن طيبة خاطر للأمة التي هي أحق بها منه وأجدر ؟!!

وبعد امعان وتفكير واعمال روية ، يلتفت نحو ابن العباس ويستطرد القول :

الامام : لقد بدت لي ـ بعد تفكير طويل فيه مقارنة مع الواقع ، واقع الجزيرة التي نحن من أبنائها ، فكرة بنيت بها مبدأ جديداً طبقته أولاً على نفسي ، اتسمعه الآن مني ؟

ابن العباس : اجل أيّها الامام ـ لقد ترسخ الآن أيماني بأنك تقدر أن تبني مبدأ وتصوغ منه قراراً ـ فما هو مبدأك الجديد ؟

الامام : رأيت أن تَحَسُّبَ جدي الرسول في تخليص هذه الأمّة من قبلياتها لم يستوف نصيبه على الأرض ، انما ـ بالعكس ـ عادت القبلية للظهور باقبح نتائجها ، اذ غاب هو عنا . . . لم يتصرف معاوية إلّا بوحي من القبلية التي تفتش بها كل قبيلة عن نصيبها في الزعامة ، كل من الخلفاء : أبي بكر الصديق ، وابن الخطاب ، حتى انتهى الأمر المفجع إلى ابن عفان الذي أوقعنا في الهزيمة ! ألا ترى ؟

ابن العباس : صحيح ـ لقد عمل النبيّ المعجزة في توحيد الجزيرة ، وتوحيد الأرض وتحريرها ، وها هي دولة الاسلام لم تترك شبراً واحداً من أرض العروبة إلّا ومدّت اليه قلبها وروحها وباعها . . . إلّا القبلية ، إلّا هذه العصبية الصغيرة الحقيرة ، فلماذا لم يتمكن أحد من القضاء عليها قضاء مبرماً ؟

الامام : ان القبلية هي روحية القبائل يا عبدالله ، والقبائل هم مادة

العرب ومادة الاسلام . قد يكون التشديد على زجر القبلية عمليةً تذعر منها بنية القبائل في هيكليتها الأساسية ـ من هنا تتحرك دائماً عصبية الزعامات ـ تتحرك ولَمَّا يُهَذِّبْهَا بعد مران في تحمل الحق ، وفي تحمل العدل فيما يفرض ، وفي فرض المساواة فيما ترمي اليه في حقيقة البناء النفسي ـ الروحي في آن معاً ـ انها كلها من مقومات بناء المجتمع في توحيد العصبية له ككل ، وليس لكل زعيم فيه على انفراد . ان تهذيباً من هذا النوع الجليل ، لا ينشئه ، ولا يوسعه ، ولا ينشره إلّا العقل . . . ليت جدي قد طال عمره ثلاثين سنة فوق عمره الذي تعجل بتره ـ لكان المران قد أصبح أفعل ، وأجدى ، وأبلغ ، ولكانت القبلية قد أخذت لها اتجاهاً آخر هو إلى جني الخير من خزانه العام المشترك ، وليس عن طريق كل زعيم بمفرده ، لا يوصل للناس من الجني العام أكثر من عشرة بالمئة ، أما الباقي فهو له على استئثار . انما تهذيب الجماعات البشرية هو فن واخلاص ، وهما من انتاج قلب كبير ، وعقل أكبر . . . الا ترى يا عبدالله ؟

ابن العباس : بدأت ادرك كيف يمكن المجتمع أن يحقق ـ كم أتمنى الآن لو أن البداية بعد موت النبيّ ـ كانت بأبيك ، رضوان الله عليه ـ لكنا الآن قد اختصرنا المسافات ، ولكانت اليك الآن وصلت إمامة تستمر ـ كما قلت ـ في التحرير والتسيير . أراك فعلاً لها يا الحسن .

الامام : اني لها الآن يا ابن العباس ـ لقد تجلت لي الآن الحقائق : ان بناء المجتمع لا يتم بعشر سنين ـ انه العمل الذي لا ينتهي ، أما جدّي ـ فانه لم يقدم إلّا حجارة الأساس ، علينا ـ من هذه الحجارة ـ ان نبني ، حجراً حجراً يكون رص المداميك . أما القبلية فاننا لا نقدر أن نزحزح شيئاً من أثقالها

إلاّ بفرط رمالها ـ حبّة حبّة ـ من المداميك المشوّهة التي نحن نعاني منها .

انه الواقع يا عبدالله ـ لهذا لم يكن لنا الدور في الوصول إلى الحكم الذي تترجاه لنا الآن ـ بعد أن ترجاه لنا جدّي ـ لأن الواقع المريض الذي هو واقعنا ، لم يرض بنا في هذا الظرف الذي لم تنتظم بعد قرعات ثوانيه لقد تنكر لنا المجتمع القبلي ، لأنه ظننا نتقدم عليه بعصبية ضخمها علينا انتماؤنا إلى بني طالب ، نقمها علينا بنو أمية ، وان كنا جميعاً من بني قريش . ربما نكون نحن المغالين بالإفتخار بطالبيتنا التي انجبت فخر المسلمين ، فلم تتحملها عصبية الزعماء ، فارتدوا الينا وطعنونا بها بما جعل الضربة ترتد اليهم والينا بشكل أليم !

ابن العباس : ولكن النبيّ منا أيّها الإمام ، فهل كان الغير بنا من الخاسرين ؟

الإمام : أنه منا بتمام الحقيقة يا ابن العم ، وأنه أيضاً بالحقيقة الواسعة ، من كامل أرض الجزيرة ، من تاريخها ، من واقعها ، من حرّاتها ، ومن واحاتها على السواء . . . ولكنه بالحقيقة الواسعة والعظيمة ـ ليس لنا وحدنا ـ بل أنه للرسالة التي هي ـ أبداً ـ للإنسان : أظنها ستجمع إلى صدرها الرحب عالم الانسان في حضن الله العزيز الحكيم . . . هكذا علينا نحن الآن أن نستوعبه وأن نستوحيه في متابعة العمل . . .

ابن العباس : وكيف ؟

الإمام : أن نقر بالواقع ـ أن نقدم ما يزيل عنا سوء الظن ، أن

نقول : لا فرق بين طالبي وامويّ ، وأية قبيلة من قبائل العرب ، أن نتحد لمصلحة الأمّة ، وأن نتنازل عن كل شيء في سبيل مصلحة الأمّة ، وفي سبيل وحدتها واستقرارها ، اني اتنازل عن الحكم الذي حجبه عن والدي وعني واقع الأمّة ، فأنا لست له ، اذا يحسب علي استئثاراً كما يحسب على كل ساع إليه لجعله اداة كسب . . . أنا لست من هذا النوع من طالبي الحكم يا عبدالله ـ أنا اقدّم الآن القدوة الحسنة ـ حتى يتأثر بها معاوية لجعل الحكم اداة جمع لا اداة تفرقة ـ حقنا للدماء أولاً ـ ومنعاً للقبلية من التمادي في استفحال أمرها ـ وتوحيداً للأمّة وجعل كل أبوابها مفتوحة لا موصدة بحواجز ، وفوارق ، وحدود ـ حتى يفتح العراق على الشام ، وتنعم أرض الجزيرة الأم بحقها من الأمومة ، يأتيها حباً وتكريماً ووفاء وتقديراً ، من جميع ابنائها المتمددين فوق الأرض منذ عشرات آلاف السنين ـ ألا ترى ذلك صحيحاً يا عبدالله ؟

ابن العباس : ولكن معاوية ليس هكذا سيفعل !

الامام : يكفي أنه سيرد جيشه إلى الشام ويريحه من قتال ليس له جدوى ـ يكفي أن يجمع العراق إلى الشام ويريحه من مضنيات القتال ـ يكفي أنه يريح أرض الجزيرة الأم من صراع يقف بها على حد الانفجار ـ يكفي أن يحسب التنازل تخفيفاً من قبلية هي على الأقل ـ بين الطالبيين ـ الهاشميين والسفيانيين ـ الأمويين ـ مرض عضال يطال كل القبائل . . .

ابن العباس : وهل تراه سيصلح للحكم الواسع وهو يؤسس ملكية لا خلافة صحيحة للمسلمين ؟

الامام : أنا لا أظن أن مبدأي في جعل مصلحة الأمّة فوق كل

مصلحة ، هو الذي سيأخذ منه معاوية كل البنود التي سيبني عليها دولة حكمه ـ ان مبدأي هذا ليس لمعاوية بالتخصيص ـ انه للأجيال الصاعدة . كل جيل يأخذ منه مادة سيستحق درجة من النجاح ـ ان الحكم الذي سيتوصل إلى الفهم ، هو الذي سيجمع الأمّة إلى بساط واحد من العمق الحضاري ـ وعندئذ فان المجتمع الصحيح هو الذي يستحق المجد المسحوب من خيرات الأرض ، ومن الحضارة التي يولدها عقل الإنسان الواعي ، في ظل من معرفة تكون قد محت التعصّب الصغير الحقير للزعامات ، وجعلته تعصّباً كبيراً مجيداً للمجتمع الذي هو كل المعرفة ، وكل الحق ، وكل الجمال .

ابن العباس : والآن أيها الامام ؟

الامام : اترافقني إلى المدينة حيث نستقر ونؤسس ندوات للبحث والعلم ونشر الثقافة ؟ علّنا هكذا نستمر في عمليات البناء ، ويستمر لنا الحكم الذي فاتنا على كرسي ، ولا يفوتنا أبداً ، ولو قصدنا بعملية التنحية ، والقهر ، والتغييب !

ابن العباس : سأكون معك يا ابن العم ، وبالرغم مما أوجس منه . . . ولكن معاوية لن يحقق بنداً واحداً من بنودك الكبيرة في الإصلاح ـ لن تنفصل عنه مقاصده ، فهي مطوية في نفسه ـ سيلاحقك إلى المدينة ـ سيلبث أبداً طابخ سم ـ يكفيه في بطانته : مروان بن الحكم وبقية الحثالة الأموية وأخيراً هذا الذي فتّش عنه والحقه بنسبه ـ زياد بن سميّه ـ فهلا تحذر دائماً معاوية !

الامام : هيا يا ابن العم ـ أنا أعرف معاوية ، وأعرف تماماً أنه هو بالذات قاتلي ، وأعرف أنه هو السم الذي اشربه ـ وأعرف

الآن أني جعلت منه ترياقي .

ابن العباس : أنت نهر الكوثر أيها الامام ، فيا خوفي من أنك ستكون الكوثر المهدور !!!

الإمام : طالما أن الكوثر هو الكوثر، فكيف يهدر ـ يا عبدالله ـ كوثر الجنّة ؟ نحن قدمنا الحق يا ابن العباس ، وهل يبنى مجتمع بغير الحق ؟ فلينتظرنا اليوم الكبير ـ إلى ذلك اليوم سنبقى نحيا ـ هيا بنا الآن يا عبدالله بن العباس . . .

ويشمل المكان صمت كأنَّ عليه سجف الأبدية . . . رفعت رأسي لأرى أين هما المتحدثان اللذان لم يتركا إلاّ صدى بقي رهبة في سقف المكان وعلى جدرانه . . . ولكني لم أجدهما ، فتقدمت إلى الستار المكشوف عن نافذة وسيعة في الجدار ، فرأيت ايوان كسرى رابضاً في الأبعاد ، ورأيت شبحين يسيران بخطوات مقهورة ، ولكنها مستضيئة بنجوم الليل ـ عرفت انهما يتجهان نحو يثرب ، فأغمضت عيني التعبتين وأنا أقول : الا يمكنني أن اتبعهما إلى يثرب ؟

ولكني وجدتني ـ وتباشير الصباح تسبق الشمس إليّ ـ افتح عينيّ على الكتاب الذي ما زال بين يدي ، ولكن أصابع كفي كانت تدغدغ الصفحة البيضاء من خاتمته ، فأخذته ورحت استدرج ـ كراساً سريعاً ـ صفحاته وأنا أسأله : أين وجدت فيك أيّها السارد كل ما سمعت في هذا الليل من حديث جليل لم أقرأه مجموعاً فيك ؟ ولكن صمت وعدت إلى نفسي أقول : ولكني جمعته كله من بين دفتيك ـ تلقطت به معلقاً بكل حرف من حروفك أيّها الكتاب ـ من هنا وهناك وهنالك جمعته ـ مما قيل بالكلمة ، ومما قيل بالاشارة ، ومما خرج بالصدى ـ من الحقيقة جمعته ، ومن الكذبة السوداء جمعته ، ومن الكذبة البيضاء جمعته ، ومن المقصد الرهيب ، ومن الغاية المرهونة خلف الستائر المتدلية على النوافذ ، لتحجب النور ، وتبقي المكان في عتمة السقف والجدران . . . وجمعته من لسان من هنا ولسان من هناك ، يَتَحَاوران ويتخبآن خلف شفتين تقدمان

السم للهضم ، فاذا الساحات كلها الغبار الذي تتنفس به عصبيات أبعدت الحقيقة عن نصابها .

اجل أيّها الامام ـ أنا ما قرأتك هكذا مجموعاً في كلمة ، ولكني ادركت أنك أنت كل هذا بتصرفك على الأرض الذي هو تصرفٌ تعبيرٌ عن نهج هو كل الصواب . . . . سألحق بك إلى المدينة ، علني أسمع منك كلمة أخرى ستقولها مفروطة من عطشك الذي تسقي به ظمأك ـ فأنت ـ من الكلمتين المشتقتين من مصدر واحد ـ جبلت للتأكيد على معاناة مات بها أبوك ، وستموت بها ـ لتحيا ـ أيها العظيم ، كما لا يزال يحيا بها أبوك العظيم الآخر .

الخاتمة

حروف أخيرة
خاتمة

حروف أخيرة

أيه أيّها الامام

أجل ـ يا أبا محمد ـ لقد تمنيت أن الحق بك إلى يثرب ـ لا لا ستزيد معرفة بك ، بل لأبلّغ من غرقي في كنهك ، لقد بدا لي أن رفيقك في الطريق الممتد طويلاً طويلاً بين المدائن ويثرب ، كان عبدالله بن العباس ـ ولكنه بدا لي أيضاً أنه لم يصبح ـ كما اتصف به ـ حبر الأمّة ، إلاّ بعد أن ارتوى منك وأنت تكشف له علماً في طوية النفس وحقيقة واقع المجتمعات ـ لكن . . . لماذا لا يبدو لي أيضاً ـ في حقيقة الشوق ـ أني أنا بالذات ، بعد أربعة عشر قرناً من مسافات الانفصال ، كنت رفيقك في الطريق الممدود فوق صفحات الرمال ؟ يا للعظمة في تركيز الخيال ! كيف يجعل من حبّة الرمل وصلة تجمع الصحراء من طرفيها ، وكذلك قطرة الماء في جمع المحيط الخاضع تحت خفقة المجذاف !

ـ ٢ ـ

لست أحب أن اتخيلك أنّك العظيم ، فأنت ـ بالحقيقة ـ كنت العظيم ، لقد أنشأت صلحاً مع معاوية ، لا ليسلم معاوية متنعماً بأرض الغوطة ، أو لتسلم أنت مكفكفاً في أرض يثرب ـ بل لتسلم يثرب في الشام ، والشام في يثرب ـ ولتسلم يثرب في العراق والعراق في يثرب . . . يا للأمة سالمة في وحدتها ، كما هي سالمة بمثلها المجموعة إليها من غرسها بالحق .

- ٣ -

أيه أيّها الضمير المشتاق أبداً إلى الاقرار بالمعروف الناصع البياض - اتكون خطوات الامام قد نقشت نقشاً على رمال الطريق - بين المدائن ويثرب ؟ كأنّ الرمال بلاطة تحفظ النقش فلا يمحّى ، وهي مسحوبة من مقالع زغروس المخيم على الخليج ، وهي لا شك ممتدة ، من تحت لجج المياه ، إلى تحت هذه الفدافد والصحارى ، حتى تكون أساسات بنيت عليها مساحات الجزيرة الأم ، وبالأخص مدينة مكة ، ومدينة يثرب . . . أتكون الخطوات هذه غير تسجيل لواقع مهزوم ، لا تزال تئن منه الأمّة العظيمة التي لم تصل بعد إلى حضور ترتجى له العظمة !

- ٤ -

لقد وقعت الأمّة في ويل لمّا تحولت صفين إلى اسفين قطع الفرات عن الفرات ، والشام عن العراق ، والإنسان عن الإنسان ! ولكانت وقعت بالويل العميم لو لم يبادر الحسن إلى اتخاذ القرار - أيه أيّها الجراح بن سنان - ما كنت ادري أية بطولة هي التي كانت تحدثك برفض القبول بالقرار - أم أنك عدت فقبلت بالقرار ، بعد أن سمعت الشرح من الامام ، يُحمّلُه أمّ عبدالله ، حتى تبلغه أخاها معاوية في الشام - ففهمت أن القرار هذا هو أساس ثقافة ستنجح بها الأمّة ، اذ تتغطى به كأساس .

- ٥ -

أصبح حبر الأمة عبدالله بن العباس يساهم معك في يثرب في الندوات التي قمت بها لنشر العلم والثقافة ، من هنا يشتد إيماني بأن نشر الثقافة في المجتمع هو الذي يخلّصه من غفلاته ، ويقدّم له الوعي الذي كان غافلاً عنه ، وهو الذي يقدم له المعرفة التي تنبع من عمق الواقع الانساني - المجتمعي ، ويدلّه إلى الخير الذي هو له ، والذي هو مادة جمعه وتوحيده ، وأساس مناعته كمجتمع حيّ . . . ليست الثقافة المنشودة إلاّ حصيلة اختبار الإنسان من حقيقة

واقعه في مجتمعه ، حتى تكون له في مجال التلبية .

- ٦ -

لقد قالوا عنك أيّها الامام : لو لم تكن مهزوماً لما اتخذت القرار ـ ولقد اتخذته بالتمام لأنك كنت مخذولاً . . . ولكنها الحقيقة بالتمام : لقد كنت مهزوماً ـ لهو واقع الأمّة الذي هزمك ـ وأنه واقع الأمّة الراهن هو الذي خذلك . . . لقد خذل جدّك العظيم قبلك فلم يطع في احلامه وتمنياته ـ لقد خُذل أبوك الغارق في اصالة الوجدان ، فافرزته القبلية إلى الهزيمة ! وللهزيمة هنا مدلول آخر ، لم ينهجه لا أبو بكر ، ولا حتى عمر ـ انها هي التي تطال الأمّة كلها : باحلامها ، وامانيها ، ووحدتها ، وكل تحقيقاتها البكر ! وأية هزيمة نكراء تقع فيها الأمّة ، وهي تجمع حقداً عند قبائلها وتزرعه في صدر كل زعيم لا يمكنه أن يحقق زعامته . إلاّ بجمع كل قبيلة تقاوم قبيلة اخرى تسابقها على الزعامة ! أن الذي حصل على الأرض هو الهزيمة بالذات ، تلقاها الحسن ، وألف منها القرار ، وألّف منها النصر ، وألّف منها الأمثولة للأجيال : بأن الصلح الواعي هو وحده لجمع الأمّة وربطها بوحدتها الكبيرة التي منها وحدها تحصل العظمة .

- ٧ -

ما رايتك أيّها الامام ـ ازاء معاوية ـ إلاّ لتصفو . فهو الذي رماك في المعاناة التي وصفوها بأنها أصل الهزيمة والانخذال ـ حتى أخذت منها طاقة حولتها إلى المجرى الآخر الذي هو تنظير حضاري في التحام الأمّة التحاماً رائعاً يقوم على نبذ الأحقاد ، وتسليم العقل السليم زمام المجتمع القوي الراقي ـ كأنّك ابتكرت النهج أيّها الامام ، في مجتمع أضناه النهج القبلي العتيق ، فاذا أنت طريق جديد مخطوط في قلب الصحراء ، كأنه مزروع الجانبين ببواسق الشجر ، وكأنّ قوافل تخطر عليه ، وهي تنؤ باحمال وآمال هي كل الخير المبني به مجتمع الانسان .

- ٨ -

لم يمت هانيبعل العظيم مهزوماً ، فهو لا يزال يحيا في كل ما رسم من مخططات جعلته عبقرياً في فنون الحرب ، دفاعاً عن مجد قرطاجة - ولم يترك عيسى الأرض مهزوماً ، فهو يحيا في كل حرف بالرحمة نطق ، وبالحب والتسامح ، لتكون الأرض كلها في فلسطين عجينة مطهرة يأكل منها الإنسان حتى لا يموت - وجدّك العظيم - أيّها الإمام - لم يمت مهزوماً في يثرب ، بل أنه لا يزال يحيا في كل آية توحّد الله في توحيد الأمة ، حتى تبقى عظيمة بين أمم الأرض - ولم يمت مهزوماً أبوك علي فوق أرض الكوفة ، فهو الحيّ في كل حرف بليغ نطق به ، وهو يرسم فيه - بالفعل - قيمة الحق ، وقيمة العفّة ، وقيمة الوجدان ، وكلها أساس في بناء مجتمعات الإنسان - ولم تمت أنت مهزوماً ، يا أيّها الذي ناولوك السم في كوب - فمات الساقي ملفوفاً بنيته السوداء ، وحييت أنت بسم جعلت منه - أبداً - ترياقك . . . يكفيك أنك قدمت للمجتمع المفسّخ الذي هو لك ، مبادىء حق ستجمعه إلى ذاته العظيمة اذ يفتش عنك .

- ٩ -

أصحيح أيّها الإمام أن المرأة التي هي ضلع في بيتك - زوجتك جعدة بنت الأشعث - هي التي مزجت لك السم في كوب من اللبن ، رحت تجرعه في مرض ألمّ بك ورماك محموماً في الفراش ؟! وهل هو صحيح أيضاً أن طابخ السم معاوية ؟ لماذا لا يكون صحيحاً كل ذلك ؟ ألا يكذب على الغير ذلك الذي يكذب على نفسه ؟ أيكون معاوية قد حقق شرطاً واحداً من الشروط التي قطعها لك ، لقاء تنازلك له عن الحكم ؟ أين هي - في آخر المطاف - ولاية العهد ؟ لقد كانت اليك في حقيقة الاتفاق ، وها هي لابنه يزيد . . . فلماذا لا يكون له أن يختم العهد بالقضاء عليك قضاء مبرماً، حتى لا يكون له - منك - أية بادرة من ازعاج !!! أمّا أنت أيّها الإمام ، فكنت العارف منذ ذلك الوقت بأن معاوية لن يصدق ، ولكنك - بالذات - كنت العازم على اتخاذ القرار ، لا لتجترح اعجوبة تخليص معاوية من أثقال سفيانيته - فان ذلك لم يكن بمقدورك - بل لتقدم للأمة

مادة تنجيها من تخلفها ، وتجعلها ماثلة أمامك في القدوة التي تناولها دمك مهراً لها ـ مقدماً ومؤخراً على السواء !!!

ـ ١٠ ـ

لقد كانت لك الأمنية أن تنام نومتك الأخيرة قرب جدّك حيث هو ثاوٍ في باحة المسجد ـ ولكن الوباء ذاته الذي رمى أباك في الساحة بعيداً عن كرسيّ الحكم ، هو الذي أخذ به والي المدينة الأموي سعيد بن العاص ، وجردك ، حتى من أمانيك في جدّك الرسول . . . لقد كانت لك استعاضة ، فنمت في حضن امك فاطمة في البقيع ، فكنت عزاء لها في غربتها ! أما ذلك الذي هو ثاو في النجف الاشرف ، فانه رنا اليك وهو هازىء من صروف الدهر ـ أما اخوك الحسين ، فانه بقي واقفاً وحده قربك ، لا ينحني ولا يلين ـ لقد أخذته العاصفة إلى حضنها ، ولفته بما هو أعمق من العنفوان .

خاتمة

أيّها الامام ،
واسأل نفسي فيك
ما هو الجلال ؟
هو أنك قد أتيته رحباً ـ
انه كالخيال ـ
تستدرجك اللحظة فيه إلى ألف مجال ـ
وكنت المجال . . .
في تلك اللحظة الأولى كنت المجال ـ
وبعد أن اختطفت إلى المدى ،
أصبحت شوقاً في المجال ـ
فلتنظر اليك الأمّة ،
بعد رصيد طويل من السنين ،
فأنت لها بساط الأساس .
يا للنهج الأساس !
وأنت لها جامع الحق ،
وجامع النهى ،
وجامع المفارق فوق الدروب ،

وأنت جامع حبّات العقد في رصف النضيد ،
وأنت الرائي الكبير :
تمشي الطريق بالهمس اللطيف ـ
تجمع الهمس وتصوغ منه ياحات الزمان ـ
كأنّ عناق الصلح بين اثنين ،
هو عتبة البناء ـ
تمرّ من تحتها أفواج وأفواج ـ
أنهم الميامين ألفاهمون ـ
انهم سواعد الأمّة السمحاء والعذراء . . .
يا لجاجة الشوق اليك .
تمر الأيام ، وهي تذوب في فراغ ،
دون أن تعرف كيف تتلمس خطاك !
كأنّها لا تزال تغرق في حراتها المضنيات !
كأنَّ الحقد هو الضرورة من حاجاتها !
تقتات به ـ ظنّاً ـ أنه هو العنفوان ـ
يا للأمّة ! ومبتغاها العظيم !
أليس هو الجمع في طاقاتها ؟
فأين هي ـ بعد طول في مسافات الزمان ـ
لا تستجيب إلى خطاك ؟!
أيّها البهيَّ الذي نقشت الدرب بخطاك ـ
وقصدت رزم الأمّة ـ
فمتى يكون لها مجد ـ
وهي تقفو خطاك !!!

للمؤلف

- الامام علي نبراس ومتراس
- فاطمة الزهراء وتر في غمد
- محمد شاطىء وسحاب
- يسوع أبد الانسان
- لبنان على نزيف خواصره
- جبران خليل جبران في مداره الواسع
- مي زيادة في بحر من ظمأ
- أمل ويأس
- الجذور
- محاكمة هارون الرشيد (مسرحية مخطوطة)
- المهلب بن أبي صفرة (مسرحية مخطوطة)

استشارة المراجع

تاريخ الطبري	لأبي جعفر الطبري
تاريخ التمدن الاسلامي	لجرجي زيدان
مروج الذهب	المسعودي
تاريخ العرب	فيليب حتي
تاريخ العرب	سيد أمير علي
الامام الحسن بن علي	باقر الشريف القرشي
مجموعة سير العرب	أ . م . مغنية
نهج البلاغة	الامام علي

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٩
القسم الأول : أُطر وملامح	١٥
حروف مبعثرة	١٧
مع البداية	٢٤
المهمة	٢٩
رب المهمة	٣٠
القيمومة	٣٣
القصد من القيمومة	٣٦
أين هي المهمة	٣٧
الجلوة	٣٨
القسم الثاني : المراحل	٤٣
وصلة البحث	٤٥
السقيفة	٤٧
أبو بكر الصديق	٥١
فاطمة الزهراء	٥٤
عمر بن الخطاب	٥٨

الموضوع	الصفحة
نبذة في الواقع	٦٢
عثمان بن عفان	٦٦
غمزة	٧٢
الإمام علي ـ المنحّى	٧٣
الإمام علي ـ الخليفة	٧٩
الحسن	٨٦
معاوية بن أبي سفيان	٩٣
القسم الثالث : أي كرسي هو الحكم !	١٠٣
المواجهة	١٠٥
جعبة الحكم	١١٣
المبايعات	١١٩
أي كرسي هو الحكم ؟ !	١٢٥
القرار	١٤٠
الخاتمة	١٥٥
حروف أخيرة	١٥٧
خاتمة	١٦٣

0019

VETUS & NOVUM TESTAMENTUM
DEI SUB NUMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
NOV.-DEC. 1992
We're Quality Bound

Princeton University Library
32101 063375396